الإمام الشافعي

تأليف
مصطفى عبد الرازق

الناشر
شركة نوابغ الفكر

obeikandl.com

شركة نوابغ الفكر ، القاهرة

البريد الالكترونى :

Nawabgh_elfakr@hotmail.com

هاتف: ٢٥٩٣٦٤٠٢

فاكس: ٢٧٨٦٥٥٥٣

فهرست الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية :

الامام الشافعى

تأليف : مصطفى عبد الرازق

ط-١ القاهرة : شركة نوابغ الفكر 2016

عدد الصفحات :

١- الفقهاء الشافعية

٢- الامام الشافعى ، محمد بن ادريس بن العباس الهاشمى القرشى ، ٧٦٧-٨٢٠

١-العنوان

رقم الايداع : ٢٠١٥/٢١٦٦٠

الترقيم الدولي:978-977-6415-42-3

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الشافعى واضع أصول علم الفقه

الشافعى هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء: أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى المتوفى سنة «١٥٠هـ - ٧٦٧م»، وأبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى المدنى المتوفى سنة «١٧٩هـ - ٧٩٥م»، وأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المكى المتوفى سنة «٢٠٤هـ - ٨٢٠م»، وأبى عبد الله أحمد ابن حنبل البغدادى المتوفى سنة «٢٤١هـ - ٨٥٥م».

وهؤلاء الأئمة هم الذين استقرت مذاهبهم فى الفقه الإسلامى بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام، وتلاشى ما عداها من المذاهب كمذهب «الحسن البصرى» المتوفى سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب «سفيان الثورى» المتوفى سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى» المتوفى سنة «٢٤٠هـ - ٨٥٤م»، ومذهب «محمد بن جرير الطبرى» المتوفى سنة «٣١٠هـ - ٩٢٢م».

وطالت مدة المذهب الظاهرى الذى أسسه «داود بن على الأصفهانى» المتوفى سنة «٢٧٠هـ - ٨٨٣م» وزاحم المذاهب الأربعة، ودرس بعد القرن الثامن.

والتنافس بين المذاهب الأربعة على الغلبة والانتشار والسلطان قديم يرجع إلى عهودها الأولى، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم.

ولئن كان هذا التنافس قد أدى فى بعض الأحايين إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة، فإنه فى أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكرى، وتسابق إلى الإتقان والكمال فى البحث العلمى.

فإن أهل كل مذهب كانوا لا يفتؤون يتفننون فى جعل مذهبهم ميسراً لأفهام الناس وأذواقهم، متسعا لما يتجدد من حاجتهم، متميزا بلطف الاستنباط وحسن التخريج، كثرة الجمع للمسائل، وجودة التأليف، حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلى العظيم فى الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التى لا يحصى عديدها، وبما فى كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع.

لا جرم كان التراث الفقهى الإسلامى من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقهين.

وا نزاع فى أن لأشخاص واضعى المذاهب أثرا فى رواج مذاهبهم وإقبال الناس عليها، وتغلبها على ما عداها.

وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم[1].

---

(١) نقل ابن حجر عن زكريا الساجى، أنه سمع هارون بن سعيد الأيلى يقول: ما رأيت مثل الشافعى، قدم علينا مصر فقيل رجل من قريش فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة نه ولا أحسن وجها، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه، فافتتنا به. ص ٥٩.

وأخرج الآبرى من طريق الربيع قال: لما قدم الشافعى مصر وقعد فى مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق: عبد الله بن عبد الله بن عبد الحكم ونظراؤه، وكان الشافعى حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان. ص٦٢.

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربعة لنشر مذاهبهم والدعوة لها: وضع المصنفات فى مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب، وفى الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم، ويبين مزايا مذاهبهم.

وقد تفرد الأئمة الأربعة بكثرة ما دون من المؤلفات فى تراجمهم حتى ليقول «أبو زكريا النواوى» المتوفى سنة «٦٧٦هـ - ١٢٧٧م» في شرحه للمهذب المسمى بالمجموع: «وقد أكثر العلماء من المصنفات فى مناقب الشافعى رحمه الله وأحواله من المتقدمين كداود الظاهرى وآخرين، ومن المتأخرين كالبيهقى وخلائق لا يحصون».

ويقول أبو حفص عمر بن أبى الحسن الشافعى المعروف بابن الملقن فى كتابه «العقد المذهب فى تاريخ المذهب» المؤلف فى القرن الثامن الهجرى: «وترجمة الشافعى حذفناها فى هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفا فبلغت نحو أربعين مؤلفا».

على أن كثرة هذه المؤلفات وإن وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها تقوم فى الغالب على العصبية لإمام على إمام، فلا تخلو من سرف فى المدح وسرف فى الذم، وجدل فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من الهنات، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان، وعلى الأحلام والرؤى.

ومن أمثلة ذلك: ما ورد فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان لمحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردى صاحب الفتاوى البزازية المتوفى سنة «٨٢٨هـ - ١٤٢٣م» من عقد فصل لصفة الإمام فى التوراة.

وقلما نجد كتابا فى مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له فى المنام وما رئى له.

نعم لكل ذلك وزنه ودلالته فى نظر الباحث، لكن التقصى لهذه المقالات فى مصادرها، والمقارنة بين رواياتها المختلفة، واعتبار حجج المثبتين لها والمزيفين - مما لا يدخل فى غرضنا ولا يتسع له المقام.

غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعى فى تكوين العلم الإسلامى.

ولما كان وصف الأثر العلمى للإمام يستدعى تصوير شخصيته التى صدر عنها هذا الأثر، فإنى أجعل هذا البحث قسمين:

أ - ما يتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه من نشأته وسيرته.

ب - ما يتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم «أصول الفقه».

وأتناولهما على هذا الترتيب.

***

نشأة الشافعى وسيرته

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى المالكى المتوفى سنة ٤٦٣هـ فى كتابه «الانتقاء» فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء: مالك، والشافعى، وأبى حنيفة رضى الله عنهم»: لا خلاف علمته بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب، وأهل الحديث والفقه، أن الفقيه الشافعى رضى الله عنه هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. ويجتمع مع النبى ﷺ فى عبد مناف ابن قصى، والنبى ﷺ «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف».

والشافعى محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وإلى شافع ينسب، وقد تقدم أنه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصى.

فالنبى ﷺ هاشمى، والشافعى مطلبى، وهاشم والمطلب أخوان ابنا عبد مناف، ولعبد مناف أربعة بنون: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس - (ص ٦٦). وهذا الذى لم يكن يعرف فيه ابن عبد البر خلافا من نسب الشافعى قد حدث فيه الخلاف.

قال فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م فى كتابه فى مناقب الإمام الشافعى:

«وطعن الجرجانى، وهو واحد من فقهاء الحنفية، فى هذا النسب، وقال: إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعى رضى الله تعالى عنه من قريش، بل يزعمون أن شافعا كان مولى لأبى لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعى رضى الله تعالى عنه من الموالى لا من قريش». ص٥.

وعرض الرازى للرد على هذه الدعوى بما لا نرى حاجة للإطالة فيه، ما دام صاحب الطعن يعزوه إلى أصحاب مالك، وقد نقلنا عن إمام من أئمة المالكية ما ينقض هذه الدعوى التى يقول فى أمرها الرازى: «واعلم أن الجرجانى إنما أقدم على هذ البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالى، إلا أنهم اختلفوا فى أنه كان من موالى العتاقة أو من موالى الحلف والنصرة، وطال كلامهم فى هذا الباب. وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البهت، وما مثله فيه إلا كما قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة] ص ٧ و٨.

وقد يكون أصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادى فى ترجمته للشافعى، من أن أم شافع أم ولد.

فالشافعى من جهة أبيه قرشى مطلبىّ، ليس فى ذلك نزاع يقام له وزن، وإن كانت أم جده ليست من العرب.

وقد ذكر الكثيرون ممن ترجم للشافعى: أن جده السائب أسلم يوم بدر، وكان صاحب راية بنى هاشم مع المشركين، فأسر ففدى نفسه وأسلم. وروى أنه اشتكى فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد فإنه من قريش. وقال النبى ﷺ: حين أتى به وبعمه العباس: «هذا أخى».

أما ابنه شافع فلقى النبى وهو مترعرع.

فالسائب بن عبيد صحابى، وابنه شافع صحابى، وأخوه عبد الله بن السائب والى مكة صحابى.

وروى ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفى سنة «٨٥٢هـ -١٤٤٨م» فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» عند الكلام على عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، روايات قال على أثرها:

«وعلى هذا فيكون فى النسب أربعة أنفس فى نسق من الصحابة: عبد يزيد، وولده عبيد، وولده السائب بن عبيد، وولده شافع بن السائب كان واليا لمكة.

وقال ابن حجر العسقلانى فى كتابه «توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس»: «وأما عثمان بن شافع فعاش إلى خلافة أبى العباس السفاح. وله ذكر فى قصة بنى المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الخمس وإفراده لبنى هاشم، فقام عثمان فى ذلك حتى رده على ما كان عليه فى زمن النبى ﷺ». ص ٤٥.

وذكر ابن عبد البر، فيمن أخذ عن الشافعى علمه من أهل مكة، أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع، قال: «وهو ابن عمه، وروى أيضًا عن ابن عيينة وغيره، وكان ثقة حافظًا للحديث ولم ينتشر عنه كبير شىء فى الفقه، وكان منشؤه بمكة، وتوفى بها سنة سبع وثلاثين ومائتين، وحدث عن جماعة». ص ١٠٤.

ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعى إلا أنه كان رجلا حجازيا

قليل ذات اليد، وأنه خرج مهاجرا من المدينة حين ظهر فيها بعض ما يكرهه، أو خرج من مكة إلى الشام لحاجة، فى رواية أخرى، وأقام بغزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين، ثم مات بعد مولد الشافعى بقليل.

أما أم الشافعى فهى أزدية فى أرجح الروايات، وهى الرواية المشهورة المعزوة إلى الإمام نفسه. وذكر بعض المؤرخين أن كنيتها «أم حبيبة الأزدية».

ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعى هى فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وقيل: فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن على.

وقالوا: إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبى طالب والشافعى.

ورجح هذا القول ابن السبكى فى كتاب «طبقات الشافعية الكبرى». لكن الفخر الرازى يرى: أن هذا القول شاذ. ويقول ابن حجر العسقلانى: إنه لم يثبت، ويرده كلام الشافعى نفسه. قال ابن السبكى: «ولله درها، من أى قبيلة كانت!».

قال ابن حجر: «ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعى من الحذق، أنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى مع رجل، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعى: ليس لك ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿... أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]. فرجع القاضى لها فى ذلك. وهذا تفريع غريب واستنباط قوى».

ولو أن أم الشافعى كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط

العـرف التاريخ على الأقـل اسمـها، وعـرف أين وافـاها حمـامهـا وفى أى زمن[1].

هذه السيـدة التى يختلفـون فى نسبـها ويختلفـون فى اسمـها هى التى كفلت طفلها يتـيما غريبا فقيـرا، ولم تزل ترعاه بعايتها وتتولاه بـهديها حتى أصبح بين المسلمين إمامًا.

خـرج إدريس بن العبـاس والد الشـافعى من مكـة مهـاجرا، يفـر من الظلم، أو يفـر من الفقـر، أو يفر من كليـهمـا، وقد يكون فى طريقـه إلى فلسطين أقام فى المدينـة زمنا، فقال بعض الرواة: إن هجـرته كانت من المدينة ثم نزل فى غزة أو فى عسـقلان - وهما ثغران من ثغور فلسطين مـتجاوران، وعسقـلان هى المدينة - وأقام هناك مع زوجه التى وضعـت له طفلا ذكرا لم يكد يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه.

هذا مولد الـشافعى، ولا خـلاف بين الرواة فى أن الشافـعى ولد «سنة ١٥٠هـ»، وهى السنة التى مات فيها أبو حنيفـة على الصحيح، كما ذكر ابن حجر وغيره[2].

---

(١) فى كتاب «الكواكب السـيارة فى ترتيب الزيارة» تأليف شمس الدين مـحمد بن الزيات: «ويقولون (عن قـبر من القـبور) به أم الإمام الشـافعى وليـس بصحـيح فإنهـا بمكة. قال المؤلف عفا الله عنه: دفنت فاطمة أم الإمام الشافعى بمكة. وهو الأصح».

(٢) وفى كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبى محـمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى الشافعى اليمنى ثم المكى المتوفى سنة ٧٦٨هـ:

«وقلت: وبيننا وبين الحنفـية مقـاولة على سبيل المزاح، فـهم يقولون: إمـامكم كان مخفيا حتى ذهب إمـامنا، ونن نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم». ج٢ ص ٢٥. وهكذا يمزح المتفقهون.

والمروى عن الشافعى: أنه قال: إنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين، من غزة أو عسقلان.

وفى كتاب «معجم الأدباء» لياقوت: «وفى رواية أن الشافعى قال: ولدت باليمن فخافت أمى علىَّ الضيعة، فحملتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيهٍ ذلك. وتأويل بعضهم قوله «باليمن» بأرضٍ أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها.

قلت: وهذا عندى تأويل حسن إن صحت الرواية، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع». ج٦ ص٣٦٨.

ويقول ابن حجر فى «توالى التأسيس» ص ٤٩: «والذى يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن، لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشرا خافت على نسبه الشريف أن يُنَسى ويضيع، فحوَّلته إلى مكة».

وليس من رأيى التوفيق بين الروايات المتضاربة قويِّها وضعيفها على هذا الوجه، فتلك طريقة ليست من التمحيص التاريخى فى شىء، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند، التى يرجِّحها ما يحفّ بها من القرائن. والذى تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعى ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبى عليه السلام، ثم حملته أمه إلى عسقلان وهى من غزة على فرسخين أو أقل. وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها. وكان يقال لها: «عروس الشام». وفى كتاب «أحسن التقاسيم» للمقدسى المعروف بالبشارى: «أن خيرها دافق، والعيش بها رافق».

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأيم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفلها اليتيم الغريب.

فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه إلى مكة؛ لينشأ بين قومه من قريش، ولعلها كانت تريد أن تستعين على تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوى القربى، باعتباره مطلبيا[1].

---

(١) ويظهر أن أم الشافعى كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبه والشعور بقوميته، وقد نشأ الشافعى غير خلو من هذه النزعة حتى لقد اتهم بالتشيع. ويقول صاحب الفهرست: وكان الشافعى شديداً فى التشيع، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها، فقال له: خالفت على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له: أثبت لى هذا عن على بن أبى طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله. وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم فى مجلس بحضرة أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل. ص ٢٧٩.

وذكر ابن حجر فى رواية أن الشافعى كان يقول: على بن أبى طالب ابن عمى وابن خالتى. فأشار الشافعى بذلك إلى أن أم جده الأعلى السائب بن عبيد، «الشفاء» بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف، وأمها «خلدة» بنت أسد بن هاشم أخت «فاطمة» بنت أسد والدة على. ففاطمة أم على بن أبى طالب خالة إحدى جدات الشافعى، فأطلق عليها خالته مجازاً. (ص ٤٦).

وفى كتاب الانتقاء لابن عبد البر: سوقيل للشافعى: إن فيك بعض التشيع. قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنك تظهر حب آل محمد. فقال: يا قوم ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وقال: «إن أوليائى من عترتى المتقون» فإذا كان واجبًا على أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقين. أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله ﷺ إذا كانوا من المتقين. لأنه كان يحب قرابته وابنه. وله أبيات منها:

(إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى). ص ٩١

ونقل الرازى: أن رجلا قال لابن حنبل: يا أبا عبد الله إن يحيى بن معين وأبا عبيدة=

على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفِّه من عيشه فنشأ فى قلة من العيش، وضيق حال. قال الرازى:

«وذكروا أن الشافعى رضى الله عنه كان فى أول الزمان فقيرا، ولما سلوه إلى المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم، وكان المعلم يقصر فى التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئًا كان الشافعى رضى الله عنه يتلقَّف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى رضى الله عنه يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعى رضى الله عنه يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى يطمع بها منه، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن كله لسبع سنين - ص ١٥ و١٦[1].

=ينسبان الشافعى إلى التشيع.. فقال أحمد: لا أدرى ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيرا. ثم قال لمن حوله: اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئًا وحرم قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست هذه الخصلة فى أهل العلم. ص ٣٤.

وإذا صح أن الشافعى كان لا يخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولا متعصبا، وليس أدل على ذلك من أن زوجه كانت عثمانية.

(١) وقد كان الشافعى يجيد حفظ القرآن ويكثر من تلاوته وتدبره، وروى عن الربيع أن الشافعى كان يختم القرآن فى كل شهر ثلاثين ختمة، وفى شهر رمضان ستين ختمة. ختمة بالليل، وختمة بالنهار. الرازى ص ١٢٤.

ويروى أنه كا يقرئ الناس فى المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان حسن الصوت فى القراءة، وأخرج ابن عدى من طريق أحمد بن صالح قال: كان الشافعى إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته. وأخرج الحاكم من طريق بحر بن نصر قال: كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا: اذهبوا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن، فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى يساقط الناس بين يديه ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته، فإذا رأى ذلك أمسك. =

ويروى عن الشافعي: أنه كان يحدث عن طفولته فيقول: «وكانت نهمتي في شيئين؛ في الرمي، وطلب العلم. فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة». وفي رواية من عشرة تسعة. وسكت عن العلم، فقال له بعض من كان يستمع إليه: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي.

ويروى عنه أيضًا: أنه قال: كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي: «أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر». تاريخ بغداد جـ٢ ص ٥٩، ٦٠.

ويظهر: أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعي جلال السن وجلال الإمامة.

«عن المزني قال: كنت عند الشافعي فمر بهدف، فإذا رجل يرمي بقوس عربية، فوقف عليه الشافعي وكان حسن الرمي فأصاب سهاما، فقال له الشافعي: أحسنت. وبرّك عليه. قال لي: ما معك؟ فقلت: ثلاثة دنانير، فقال: «أعطه إياها واعذرني إذ لم يحضرني غيرها». توالي التأسيس - ص ٦٧[1].

= وكان واسع العلم بالتفسير حتى قال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل، وكان الشافعي يقول: نظرت بين دفتي المصحف فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا علي، قال الراوي: الأول نسيته، والثاني قوله تعالى: «وقد خاب من دساها» قال: فإني لم أجده في لغة العرب، ثم قرأت لمقاتل بن سليمان قال: إنه لغة السودان فإن «دساها» أغواها. الرازي ص ١٢٤، ١٢٥ وابن حجر ص ٦٠.

(١) ويظهر أن الشافعي كان يعرف جياد الخيل، ولعله كان من فرسانها. وفي كتاب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢هـ:

قال الشافعي: لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء، وأحفظ

«روى عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه! فقال: هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله. قلت: دع لنفسك منها دابة تركبها. فقال: أنا أستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. ولم ير مالك راكبا بالمدينة قط. ج٢ ص ٨٧.

وكان الشافعي متأثرا فى خلقه وفى خلقه بالريضة البدنية التى شغف بها منذ الصغر، فكان جسمه جسم الرياضيين، وكان خلقه خلق الرياضيين. ذكر زين الدين عمر بن الوردي أن ابن صلاح، نعت الشافعي لبعض ملوك الشام فقال: كان، رضى الله عنه وجزاه الخير، طويلا سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق، طويل القصب، أسمر خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت حسن السمت، عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق، مهيبا فصيحا من أذرب الناس لسانا، إذا أخرج لسانه بلغ أنفه. ج١ ص ٢١٥.

ويظهر أن الشافعي كان لا يحب السمن ولا يحسن ظنه فى أهله. ويروى: أنه كان يقول: ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن. وتلك مقالة رجل رياضى.

ومن أخلاق الرياضيين العزة والاحتمال والقصد والبر والصيانة.

وقد كان الشافعي عزيرا صبورا مقتصدا خيرا.

وروى عن الربيع أنه قال: قال عبد الله بن الحكم للشافعي: إذا أردت أن تسكن البلد، يعنى مصر، فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به. فقال له الشافعي: يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له، وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط.

ومما يتصل بذلك ما روى أن الربيع سئل كيف كان لباس الشافعي؟ قال: كان مقتصدا فيه: يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادى، وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جدا، ويلبس كثيرا العمامة والخف، وكان لا يأتى عليه يوم لا يتصدق، ويتصدق بالليل ولا سيما فى رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء. ابن حجر ص ٦٧، ٦٨.

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعي من أول صغره بالذكاء والعقل والصيانة، ويقولون: لم نعرف له صغيرة. كتاب مرآة الجنان ج٢ ص ٢١.

الحديث والمسألة، وكان منزلنا بمكة فى شِعب الخِيف، وكنت فقيرا بحيث ما أملك ما أشترى به القراطيس، فكنت آخذ العظم أكتب فيه، وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها» الرازى - ص ١٦.

وكان الشافعى فى أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب. قال الشافعى: «وخرجت من مكة - يعنى بعد أن بلغ - قال: فلزمت هذيلا بالبادية أتعلَّم كلامها وآخذ اللغة. وكانت أفصح العرب[1]». ابن حجر ص ٥٠.

---

(١) ويقول الرازى: اعلم أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم، اعترفوا للشافعى بالتقدم فى علم اللغة وأقروا له بكمال الفصاحة. نقل عن الأصمعى أنه قال: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له «محمد بن إدريس الشافعى».

وحكى ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى أنه قال: قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس. ثم نقل الرازى شهادة المازنى والجاحظ وثعلب وأبى منصور الأزهرى وأبى سليمان الخطابى ونفطويه والزمخشرى للشافعى، وقال بعد أن نقل كلام الزمخشرى فى الكشاف، الذى يرجح به رأى الشافعى فى تفسير بعض الآيات: ما نصه:

هذا كلام صاحب الكشاف، نقلته بلفظه. وهو صريح بأن نظر الشافعى رضى الله عنه فى هذه الآية أتم، ووقوفه على العربية أكمل. مع أن صاحب الكشاف كان على مذهب أبى حنيفة، فكانت شهادته للشافعى بالتقدم فى هذا العلم دليلا على أن الأمر كذلك. الرازى، ص ١٥٣ إلى ١٥٦.

وفى معجم الأدباء لياقوت نقلا عن الآبرى، قال: وسمعت ابن هشام يقول: الشافعى كلامه لغة يحتج به. وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفرانى قال: كانت قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعى معنا، ويجلسون ناحية، قال: فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعى...

وحدث ابن خزيمة قال: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: كان الشافعى إذا أخذ

ثم توجه الشافعى لى الفقه يدرسه. وقد اختلفت الروايات فى سبب توجهه إلى الفقه، وتكاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له: أن يصرف جهده وذكاءه فى علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه. ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلا إلى ذلك.

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية ما رواه الخطيب البغدادى فى

فى العربية قلت: هو بهذا أعلم، وإذ تكلم فى الشعر وإنشاده قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم فى الفقه قلت: هو بهذا أعلم. جـ٦ ص ٢٧٩ و٣٨٠.

وذكر البغدادى فى تاريخ بغداد عن أبى الوليد بن أبى الجارود أنه كان يقول: ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعى، فإن لسانه كان أكثر من كتابه. جـ٢ ص ٦٧.

وقد رووا للشافعى أشعاراً يكفى فى الحكم عليها أن نذكر ما ذكره الرازى من أن الشافعى كان يقول:

لا يكاد يجود شعر القرشيين؛ لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ «وما علمناه الشعر وما ينبغى له» ولا يكاد يجود خط القرشى؛ لأن النبى ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى «ولا تخطه بيمينك». ص ١٩٥.

على أنه يقع للشافعى فيما يروى له من الشعر ما يكون جيداً كقوله:

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وقوله:

ما طار طير وارتفع ... إلا كما طار وقع

وقوله:

لا تأس فى الدنيا على فائت ... وعندك الإسلام والعافية

وقوله:

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همة يبلى بعيش ضيق

وقوله:

أكل العقاب بقوة جيف الفلا ... وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

تاريخه عن أبى يوسف قال: قال أبو حنيفة: لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل لى: تعلم القرآن. فقلت: إذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره؟ قالوا: تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك فى الحفظ، فتذهب رياستك. قلت: فإن سمعت الحديث وكتبته جتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى؟ قالوا: إذا كبرت وضُعفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان، ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب، فيصير عاراً عليك فى عَقِبك. فقلت: لا حاجة لى فى هذا. ثم قلت: أتعلم النحو. فقلت: إذا تعلمت النحو والعربية ما يكون آخر أمرى؟ قالوا: تقعد معلمًا وأكثر رزقك ديناران إلى الثلاثة. قلت وهذا لا عاقبة له. قلت: فإن نظرت فى الشعر فلم يكن أحد أشعر منى، ما يكون من أمرى؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة، وإن حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات. فقلت: لا حاجة لى فى هذا. قلت: فإن نظرت فى الكلام فما يكون آخره؟ قالوا: لا يسلم من نظر فى الكلام من شنعات الكلام فيرمى بالزندقة. فإما أن يؤخذ فيقتل، وإما أن يسلم فيكون مذموما. قلت: فإن تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتى الناس وتُطلب للقضاء وإن كنت شابا. قلت: ليس فى العلوم شىء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته. تبييض الصحيفة ص ١١ و١٢.

وتفقه الشافعى أول أمره على «مسلم بن خالد الزنجى» مفتى مكة سنة ١٨٠هـ - ٧٩٦م مولى بنى مخزوم. وقد اختلف النقاد فى أمر مسلم فقيل: ثقة، وقيل: ضعيف، وقيل: ليس بشىء، وقال البخارى: منكر الحديث.

ونقل أنه كان يرى القدر. ولعل هذا هو سر تضعيفه.

ويقولون: إن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي: أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي. وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة.

وأخذ الشافعي في مكة عن: «سفيان بن عيينة الهلالي» المتوفى سنة ١٩٨هـ - ٨١٣م أحد الثقات الأعلام، وروى عن بعضهم: أنه اختلط سنة ١٩٧هـ - ٨١٢م.

ثم رحل الشافعي إلى المدينة ليطلب العلم على «مالك بن أنس» فقرأ الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة، وأقام بالمدينة إلى أن توفي «مالك» سنة ١٧٩هـ - ٧٩٥م.

وخبر رحلته إلى مالك مروى على وجوه مختلفة، تتفق كلها في زن الشافعي كان فقيرا لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام دار الهجرة.

ثم يسّر الله له أسباب الرحلة، وأحسن مالك لقاءه لما تفرس من نجابته وفضله.

وتلقى الشافعي في المدينة عن غير مالك كإبراهيم بن أبي يحيى الذي يقول الرازي: اتفقوا على أنه كان معتزليا.

وخرج الشافعي إلى اليمن بعد موت مالك.

«قال الشافعي: سلما مات مالك كنت فقيرا، فاتفق أن والي اليمن قدم المدينة فكلمه بعض القرشيين في أن أصحبه، فذهبت معه واستعملني في أعمال كثيرة، وحمدت فيها، والناس أثنوا عليها». الرازي ص ١٨.

وكادت الولاية تشغل الشافعى عن العلم حتى نبهه بعض شيوخه فانتبه.

قال الشافعى: كنت على عملٍ باليمن، واجتهدت فى الخير والبعد عن الشر، ثم قدمت إلى المدينة فلقيت ابن أبى يحيى وكنت أجالسه، فقال لى: تجالسوننا وتسمعون منا، فإذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه.

ثم لقيت ابن عيينة فقال: قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك، وأدَّيت كل الذى لله عليك، ولا تعد.

قال الشافعى رضى الله عنه: موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبى يحيى - الرازى ص ٢٠.

وقد أخذ الشافعى عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعانى المتوفى سنة ١٩١هـ - ٨٠٦م. وقد كذبه يحيى بن معين، وقال النسائى: ليس بثقة. وقال غيره كان قاضى صنعاء وكان رجلا صالحا.

وعمرو بن أبى سلمة المتوفى سنة ٢١٤هـ - ٨٢٩م وهو صاحب الأوزاعى:

ويقولون: إن الشافعى جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها:

ارتفع شأن الشافعى فى اليمن، «ثم إن الحساد سعوا به إلى هارون الرشيد، وكان باليمن واحد من قواده فكتب إليه يخوفه من العلويين، وذكر فى كتابه: أن معهم رجلا يقال له محمد بن إدريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيف، فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك.

فبعث الرشيد إلى اليمن، وحملوا الشافعى مع العلوية إلى العراق». الرازى ص ١٨.

وتلك هى المحنة التى اقتضت دخول الشافعى العراق. وفى حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها إلى الاعتدال والقصد، ما رواه ابن عبد البر فى كتاب «الانتقاء» قال:

«حمل الشافعى من الحجاز، مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر، إلى بغداد، وكان الرشيد بالرقة، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه: «محمد بن الحسن الشيبانى» وكان صديقا للشافعى، وأحد الذين جالسوه فى العلم وأخذوا عنه[1]، فلما بلغه أن الشافعى فى القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعى عليه، اغتم لذلك غما شديداً؛ وراعى وقت دخولهم على الرشيد. قال: فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم. فضربت أعناقهم إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة، وأنا، فقال للعلوى: أأنت الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة؟ فقال العلوى: لن أدعى ذلك أو أقوله. قال: فأمر بضرب عنقه، فقال العلوى: إن كان لابد من قتلى فأنظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة، فهى عجوز لم تعلم بخبرى. فأمر بقتله فقتل.

ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه، فقال لى مثل ما قال للفتى، فقلت: يا أمير المؤمنين لست بطالبى ولا علوى، وإنما أدخلت فى القوم بغيًا على، وإنما أنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصى، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه، والقاضى يعرف ذلك، وأنا محمد بن إدريس بن

(١) لعل فى العبارة تحريفا فإن المعروف أن الشافعى هو الذى أخذ عن محمد.

العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. فقال لى: أنت محمد بن إدريس؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما ذكرك لى محمد بن الحسن؟ ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد، ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى، وله من العلم محل كبير، وليس الذى رفع عليه من شأنه. قال: فخذه إليك حتى أنظر فى أمره. فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل منه. ص ٩٧، ٩٨.

ويقول ابن حجر فى كتاب «توالى التأسيس» ص ٧١: «وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعى، المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوى فقد أخرجها الآبرى، والبيهقى، وغيرهما مطولة ومختصرة، وساقها الفخر الرازى فى مناقب الشافعى بغير إسناد معتمداً عليها، وهى مكذوبة، وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة، وأوضح ما فيها من الكذب، قوله فيها: إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرَّضا الرشيد على قتل الشافعى، وهذا باطل من وجهين: أحدهما - أن أبا يوسف لما دخل الشافعى بغداد وكان مات لم يجتمع به الشافعى.

والثانى - أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا فى قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم؛ وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم. هذا ما لا يظن بهما، وإن منصبهما وجلالتهما، وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك.

والذى تحرر لنا بالطرق الصحيحة: أن قدوم الشافعى بغداد أول ما قدم كان سنة ١٨٤هـ - ٨٠٠م. وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين، وأنه

لقى محمد بن الحسن فى تلك القدمة، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه.

وممن أخذ عنهم الشافعى فى العراق «وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى أبو سفيان الكوفى الحافظ» المتوفى سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥ - ٨٠٦م، و«حماد بن أسامة الهاشمى الكوفى» المتوفى سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م، و«عبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى» المتوفى سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩ - ٨١٠م. وقد قرأ الشافعى كتب «محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤ - ٨٠٥م ولازمه وأخذ عنه.

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعى ذكر مدة مقامه فى بغداد فى هذه القدمة.

وقدم الشافعى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠ - ٨١١م فأقام سنتين واشتهرت جلالة الشافعى رحمه الله فى العراق وسار ذكره فى الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون... وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأحبار من أهل الحديث والفقه وغيرهما، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليه إلى مذهبه، وتمسكوا بطريقته، كأبى ثور وخلائق لا يحصون... وصنَّف فى العراق كتابه القديم، ويسمى «كتاب الحجة» ويرويه عنه أربعة من جلة أصحابه وهم: أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفرانى، والكرابيسى». شرح المهذب للنووى جـ١ ص٩.

ثم خرج الشافعى إلى مكة وعاد إلى بغداد فى سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣ - ٨١٤م وأقام بها أشهرا، ثم إنه خرج إلى مصر فى هذه السنة كما فى معجم الأدباء. ويقول ياقوت فى موضع آخر: «ويقال إن الشافعى رضى الله عنه قدم

إلى مصر سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤ - ٨١٥م فى أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر». جـ٦ ص ٣٩٤[1].

وفى شرح المهذب: «وقال الربيع: قدم الشافعى (مصر) سنة مائتين. ولعله قدم فى آخر سنة تسع، جمعًا بين الروايتين.

---

(١) وليس معنى ذلك أن الشافعى إنما خرج إلى مصر لمجرد الرغبة فى مصاحبة الوالى، فقد كان يتشوق إلى مصر من قبل، ورووا له فى ذلك شعرًا:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونة والوعر
ووالله ما أدرى أللخفض والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى؟

وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان المؤلف نحو سنة ٢٩٠هـ منسوبا إلى أبى نواس، فيكون الشافعى قد تمثل بها.

وقد يفهم سبب خروج الشافعى إلى مصر مما ذكره ابن البزاز الكردى فى مناقب المام الأعظم أبى حنيفة على ما فيه من التحامل البين: عن الجارود بن معاوية قال: كان الشافعى رضى الله عنه بالعراق يصنف الكتب وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويل بالحجج، ويضعفون أقواله، وضيقوا عليه. وأصحاب الحديث أيضًا لا يلتفتون إلى قوله، ويرمونه بالاعتزال، فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر ولم يكن بها فقيه معلوم فقام بها سوقه. ج٢ ص ١٥٣.

وإذا كان الشافعى قد خرج إلى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو إنما أراد أن يلتمس لآرائه ميدانًا جديدًا بعد أن أدرك النصر فى الحجاز والعراق.

وقال الربيع: سألنى الشافعى عن أهل مصر فقلت: هم فرقتان، فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة وناضلت عليه، فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتيهم بشىء أشغلهم عن القولين جميعا. قال الربيع: ففعل ذلك والله حين دخل مصر. ابن حجر ص٧٧.

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحى، للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة». ص٩.

وفى ابن خلكان: «ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين».

وأقام الشافعى بمصر إلى أن مات سنة ٢٠٤هـ و٨١٩ - ٨٢٠م[1]، وكان فى آخر عمره عليلا شديد العلة من البواسير، حتى قالوا: إن صدره أصبح ضيقا، وإنه كان يقول: إنى لآتى الخطأ وأنا أعرفه. يعنى ترك الحمية.

وفى كتاب «توالى التأسيس» لابن حجر: «قلت: قد اشتهر أن سبب موت الشافعى: أن فتيان بن أبى السمح المالكى المصرى وقعت بينه وبين الشافعى مناظرة، فبدرت من فتيان بادرة فرفعت إلى أمير مصر، فطلبه وعزّره، فحقد ذلك، فلقى الشافعى ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعى منها إلى أن مات. ولم أر ذلك من وجه يعتمد». ص ٨٦.

لم تقتل الشافعى شجة «فتيان» المزعومة. إنما قتل الشافعى ما بذله من جهد عنيف فى السنين الأربع التى أقامها بمصر، ما بين تأليف وتدريس ومناظرة، وسعيٍ فى بث مذهبه، ومدافعة كيد خصومه، هذا إلى مرضه المنهك، وقد كان فى ذلك العهد مصابا بنزيف من الباسور.

---

(١) فى كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا:

فى ٤ من يناير سنة ٨٢٠ كانت وفاة الإمام محمد بن إدريس الملقب بالشافعى رضى الله عنه، وهو صاحب المذهب الشافعى، ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى. ص ١٠٢.

قال الربيع تلميذه: أقام الشافعى ههنا أربع سنين، فأملى ألفًا وخمسمائة ورقة، وخرج كتاب «الأم» ألفى ورقة، وكتاب «السنن»، وأشياء كثيرة، كلّها فى مدة أربع سنين، وكان عليلا شديد العلة...». ابن حجر ص٨٣.

وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والإفادة فى جامع عمرو.

وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله. ابن حجر ص ٦٢.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين البصرى: سمعت طبيبا مصريا يقول: ورد الشافعى مصر فذاكرنى بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقلت له: أقرأ عليك شيئًا من كتاب أبقراط، فأشار إلى الجامع فقال: إن هؤلاء لا يتركوننى. ابن حجر ص ٦٦.

وقد يكون الشافعى درس الطب فيما درسه من العلوم فى العراق حينما جاءها أول مرة.

وقد يكون درس علم التنجيم أيضًا هناك، وإنهم ذكروا أن الشافعى اشتغل بعلوم التنجيم؛ وكل ذلك يدل على ما كان من شغف للإمام بالعلم كله.

وقد يكون هذا الجلوس المتوالى فى الجامع من أسباب ما أصيب به الإمام من المرض.

وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم فى رسالته «رحلة الإمام الشافعى إلى مصر» أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالى فى صباح الليلة التى توفى فيها، وكان الوالى هو محمد بن السرى بن الحكم، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام كما أوصى، فقال لهم الوالى: هل ترك الإمام دينا؟ قالوا: نعم. فأمر الوالى بسداد ذلك الدين كله، ثم نظر إليهم وقال لهم: هذا معنى تغسيلى له. ص٤١.

وإن صحت هذه القصة التى لم يذكر راويها[1] لها إسناداً فهى تدل على أن الشافعى خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً.

ولسنا نشك فى أن الشافعى مات فقيراً، لكنا نشك فى أمر استدانته، فقد روى ابن حجر فى «توالى التأسيس» عن ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو ابن سواد السرجى قال: قال لى الشافعى: أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى ابنتى وزوجتى، ولم أستدن قط. ص ٦٧.

وتزوج الشافعى (حميدة) بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان، فولدت له «أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب، (وفاطمة)، (وزينب).

---

(١) وقد عثرت على هذه الرواية فى كتاب (تاريخ مصر) المشهور (ببدائع الزهور فى وقائع الدهور) ولفظه. قيل: لما مرض الإمام الشافعى أوصى بأن لا يغسله إلا أمير البلد، فلما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد، فقيل له: إن الإمام أوصى بأن لا يغسله إلا أنت، فقال: هل توفى الإمام وعليه دين؟ فقيل: نعم. فحسبوا ما عليه من الدين فإذا هو سبعون ألف درهم، فقضاها عنه محمد بن السرى أو قال: هذا غسلى إياه، ورنما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه. ج٣ - ص ٣٣.

الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي

كان التشريع فى عهد النبى عليه السلام يقوم على الوحى: من الكتاب والسنة، وعلى الرأى من النبى ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه، بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم.

ومضى عهد النبى عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ - ٦٣٢م إلى سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م وقد اتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس فى الوقائع التى لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم، وفى هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يركن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ، وهم المعتبرون فى الإجماع، قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم فى حكم من الأحكام.

ولم يكن يفتى من الصحابة إلا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالته وناسخه ومنسوخه، وكانوا يُسَمَّون «القرّاء» لذلك، وتمييزًا لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب فى أمة أميّة - لا تقرأ ولا تكتب.

ثم كان عصر بنى أمية من سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م إلى سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م وتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب، ودخلت فى دين الله أمم ليست أمية، فلم يعد لفظ القراء نعتًا غريبًا يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين، هنالك استعمل لفظ «العلم» للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمى أهل هذا الشأن «العلماء» واستعمل لفظ «الفقه»

للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلى فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة.

وسمى أهل هذا الشأن «الفقهاء» فإذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يرادفهما.

وفى طبقات ابن سعد: «كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه، وكان زيد بن ثابت فقيهًا فى الدين عالمًا بالسنن».

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده فى الصحف، كابن عباس، والشعبى، والنخعى، وقتادة، ومن ذهب مذهبهم وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على الحفظ جبلة العرب.

قال ابن عبد البر: من كرة كتاب العلم إنما كرهه لوجهين:

أحدهما - ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ. (مختصر جامع بيان العلم ص ٣٤).

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى الموالى إلا قليلا. «عن عطاء قال: دخلت على هشام بن عبد الملك فقال: هل لك علم بعلماء الأمصار؟ قلت: بلى. قال: فمن فقيه المدينة؟ قلت: «نافع» مولى ابن عمر، وفقيه مكة «عطاء بن رباح» المولى، وفقيه اليمن «طاوس» بن كيسان المولى، وفقيه الشام «مكحول» المولى، وفقيه الجزيرة «ميمون» بن مهران المولى، وفقيها البصرة «الحسن وابن سيرين» المولیان، وفقيه الكوفة «إبراهيم» النخعى العربى. قال هشام: لولا قولك عربى لكادت نفسى تخرج». مناقب الإمام الأعظم للبزاز ج١ - ص ٥٧.

عندئذ تضاءلت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازماً. «عن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ - ٧٢٠م بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفتراً». مختصر جامع بيان العلم ص ٣٣.

وقد بدت مخايل نهضة فى التشريع الإسلامى منذ ذلك العهد فحصل تدوين بعض السنن وبعض المسائل، ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلا صدى[1].

ويقول «جولدزيهر» فى مقاله عن كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية: «وينبغى ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه فى يوم الحرة حرقت لأبيه كتب فقه، ولا يمكن أن يتصور بحال أنه فى ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هى صحائف متفرقة. وتوفى عروة سنة ٩٤هـ - ٧١٢م التى كانت تسمى «سنة الفقهاء» لكثرة من مات فيها من الفقهاء».

---

(١) على أن تلك المدونات لم تكن إلا صحائف أو مذكرات. أما أول تدوين للسنن بالمعنى الحقيقى فيقع نحو ما بين سنتى ١٢٠ و١٥٠هـ.

ويقول ابن قتيبة: إن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ هو أول من كتب الحديث.

وفى كتاب «كشف الظنون»: «واعلم أنه اختلف فى أول من صنف فقيل: الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٥هـ/ ٧٧١ - ٧٧٢م وقيل أبو النصر سعيد بن أبى عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ/ ٧٧٢ - ٧٧٣م ذكرهما الخطيب البغدادى. وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٦هـ/ ٧٨٢ - ٧٨٣م «قاله الرامهرمزى».

وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما». ج١ ص ٢٥، ٢٦.

وبالجملة: فإنه إذا كان دوِّن شيء لضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما في عهد بني أمية، فإن التدوين في الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا في عهد العباسيين.

هذا هو الرأى الذى كان مقررا بين الباحثين، لكن «جولدزيهر» يذكر فى المقال الذى أشرنا إليه آنفًا ما يأتى: «وقد اكتشف «جرفينى» بين المخطوطات القيمة فى المكتبة «الأمبروزية» بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية، مختصرا فى (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن على) المتوفى سنة ١٢٢هـ - ٧٤٠م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة (الزيدية) من الشيعة، وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة فى الفقه الإسلامى. وعلى كل حال ينبغى أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف فى الفقه الرسلامى. وإذا صح أنه وصل إلينا من بطانة «زيد بن على» وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية».

على أن البحث الذى أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل.

ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون، ولا أُثير فى بلاد إسلامية.

وقد ذكر صاحب «الفهرست» عند الكلام على الزيدية ما نصه: الزيدية الذين قالوا بإمامة زيد بن على عليه السلام، ثم قالوا بعده بالإمامة فى ولد «فاطمة» كائنًا من كان، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة. وأكثر المحدثين على هذا المذهب مثل «سفيان بن عيينة» «وسفيان الثورى». . . ص ١٨٧.

وعلاقة هذين الإمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذى يشير إليه «جولدزيهر» شأنا خطيرا.

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢هـ و٧٤٩ - ٧٥٠م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم، فكان طبيعيا أن تنتعش العلوم الدينية فى ظلهم، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية؛ لأنها كانت فى دور نمو طبيعى وتكامل.

وهناك سبب آخر يذكره «جولدزيهر» فى كتابه «عقيدة الإسلام وشرعه» هو: «أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية، فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية».

كان العباسيون يجعلون حقهم فى الإمامة قائما على: أنهم سلالة البيت النبوى، وكانوا يقولون: إنهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاما منطبقا على سنة النبى وأحكام الدين الإلهى.

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة، كان برنامج الحكم العباسى.

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعى، جمع الأحكام الشرعية، وتدوينها.

وفى صدر العهد العباسى تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ «الفقه» ينتهى بالتدريج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلى، أى الاستنباط من الأدلة التى ليست نصوصًا، وأصبح المعنى الأول للفقه هو: «الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية» نصوصا كانت أو رأيًا، وسمى أهل هذا الشأن بالفقهاء، ونشأ التأليف فى الفقه بهذا المعنى، وانقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأى والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز.

أهل الرأى وأهل الحديث

ومقدم جماعة أهل الرأى الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه هو: «أبو حنيفة» المعتبر أبًا لمذهب أهل العراق، أسسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان: «أبو يوسف» القاضى المتوفى سنة ١٨٢هـ - ٧٩٧م و«محمد بن الحسن» الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩هـ - ٨٠٤م.

ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتوفى سنة ١٢٠هـ - ٧٣٧ و٧٣٨م هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه، مع ميل غالب للرأى، وكان «أبو حنيفة» من هؤلاء التلاميذ، فإن حماداً لم يترك أثراً علميا مكتوبا. أما أبو حنيفة فيقول صاحب «الفهرست»: «وله من الكتب كتاب الفقه الأكبر - كتاب رسالته إلى اليسقى - كتاب العالم والمتعلم رواه عنه مقاتل - كتاب الرد على القدرية - والعالم براً وبحراً، شرقا وغربا، بعداً وقربًا، تدوينه رضى الله عنه». ص ٣٠٢.

ويذكر الموفق بن أحمد المكى الحنفى فى كتابه «مناقب الإمام الأعظم» أثر أبى حنيفة فى الفقه بقوله ج١ ص ١٣٦، ١٣٧: «وأبو حنيفة أول من دون علم الشريعة، لم يسبقه أحد ممن قبله؛ لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كتبًا مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم، فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه. ولهذا قال ﷺ: إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، وإنما ينتزعه بموت العلماء، فيبقى رؤساء جهال فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون. فلذلك دونه أبو حنيفة

فجعله أبوابًا مبوبة، وكتبًا مرتبة، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء، ثم بالمعاملات، ثم ختم بكتاب المواريث.

وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأن المكلف عد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلوات، لأنها أخص العبادات وأعم وجوبًا، وأخر المعاملات لأن الأصل عدمها وبراءة الذمة منها. وختمه بالوصايا والمواريث لأنها آخر أحوال الإنسان. فما أحسن ما ابتدأ به وختم، وما أحذقه وأفهم وأفقه وأمهر وأعلم وأبصر!

ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه، واقتدوا به، وفزعوا كتبهم على كتبه. ولهذا روينا بإسناد حسن عن الشافعي - رحمه الله - أنه قال في حديث طويل: «العلماء عيال على أبي حنيفة في الفقه».

وروى عن ابن سريج - رحمه الله - أنه سمع رجلا يتكلم في أبي حنيفة، فقال له: يا هذا مَه، فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع، والرابع لا يسلمه لهم.

قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن العلم سؤال وجواب، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم، ثم أجاب عنها فقال بعض: أصاب، وبعض: أخطأ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثاني، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمهم لهم... ولأنه - رحمه الله - أول من وضع كتابًا في الفرائض، وأول من وضع كتابًا في الشروط، والشروط لا يستطيع أن يضعها إلا من تناهى في العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم؛ لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه ويتحرز بها من كل المذاهب لئلا ينقضها حاكم بنقضٍ

أو فسخ. . . وقد قيل بلغت مسائل أبى حنيفة خمسمائة ألف مسألة وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك».

وجملة القول: أن صاحب مذهب أهل الرأى هو الذى رتب أبواب الفقه، وأكثر من جمع مسائله فى الأبواب المختلفة، وكان الحديث قليلا فى العراق فاستكبروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل: «أهل الرأى».

وإنما كان أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة، ومأوى الصحابة. ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شؤون الدولة أكثر.

ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافيا بحاجة الدولة التشريعية، فكان همه أن يجعل الفقه فصولا مرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء، وكان همه أن يكثر التفاريع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث. لا جرم كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء، وكان أئمته قضاة كأبى يوسف، ومحمد. وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بكثرة مسائلهم وقلة روايتهم.

وسئل رقبة بن مصقلة عن أبى حنيفة فقال: «هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما قد كان. وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث فى أبى حنيفة. يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى». عن كتاب مختصر جامع بيان العلم.

ويروى ابن عبد البر فى كتاب "الانتقاء" ص ١٤٧ "عن الحكم بن واقد قال: رأيت أبا حنيفة يفتى من أول النهار إلى أن يعلو النهار، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت: يا أبا حنيفة، لو أن أبا بكر وعمر فى مجلسنا

هذا ثم ورد عليهما ما ورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكفا عن بعض الجواب ووقفا عنه. فنظر إليه وقال: أمحموم أنت؟ بمعنى مبرسما".

أما أهل الحديث - أهل الحجاز - فإمامهم "مالك بن أنس" وكانت طريقة أهل الحجاز فى الأسانيد أعلى من سواهم وأمتن فى الصحة لاشتدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول "المجهول الحال"، فى ذلك.

وكتب "مالك" كتاب "الموطأ" وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه.

وفى كتاب (تبيض الصحيفة): أن (مالكًا) فى ترتيبه للموطأ متابع لأبى حنيفة. ومن العسير إثبات ذلك، فإن أبا حنيفة ومالكًا كانا متعاصرين، وأن تأخر الأجل بمالك. وأقدم ما حفظ من المجاميع الفقهية المؤلفة فى عصور الفقه الأولى بين السنيين هو "موطأ مالك".

ويقول صاحب الفهرست فى سرد كتب مالك: ". . وله من الكتب؛ كتاب الموطأ - كتاب رسالته إلى الرشيد". ص ١٩٩.

وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق: تدوين الأحكام الشرعية مبوبة مرتبة، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأى، بل هم كانوا يعتبرون الرأى ضرورة لا يلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان.

وقد روى عن مالك: أنه قال فى بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه: ﴿إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين﴾. مختصر جامع بيان العلم ص ١٩٢.

وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكاثر الناس بالمسائل كما يتكاثر أهل الدرهم بالدراهم، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن، قالوا: ألا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب في مسائل الأحكام ما لم تنزل، فكيف بوضع الاستحسان والظن والتكلف وتسيطر ذلك واتخاذه دينا!

وفي "الانتقاء": "قال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري".

ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأي، والقياس على الأصول في النازلة تنزل عند عدم النصوص.

***

الشافعى بين أهل الرأى وأهل الحديث

ظهر الشافعى والأمـر على وصفنا، من نهضة الدراسة الفـقهية فى بلاد الإسلام نهضة ترمى إلى الوفاء بالحـاجة العملية فى دولة تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً لها، ومن انقسام الفقـهاء، إلى أهل رأى يعتمدون فى نهضتهم على سرعـة أفهـامهم، ونفـاذ عقولـهم، وقوتهم فى الجـدل؛ وأهل حديث يعـتـمـدون على السنن والآثار، ولا يـأخـذون من الرأى إلا بما تدعـو إليـه الضرورة.

كان أهل الرأى يعيـبون أصحاب الحديث بـالإكثار من الروايات، الذى هو مظنة لقلة التدبر والتـفهم. "حكى عن أبى يوسف قال: سـألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير، فأجبته، فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فـقلت: بالحديث الذى حـدثتنى أنت. فـقال: يا يعـقوب إنى لأحـفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك، ما عرفت تأويله إلى الآن". مختصر جامع بيان العلم ص ١٨٢.

فأصـحاب الحديث كـانوا حافظين لأخـبار رسول اللـه، ألا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا سقط فى أيديهم متحيزين. الرازى ص ٣٨.

هم ضعاف فى الاستنباط وفى القـدرة على دفع المطاعن والشبهات عن الحديث.

وكان أهل الحديث يعيـبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن،

وأنهم ليسوا للسنة ولا هم فيها بمتشبثين؛ فإن أصحاب أبى حنيفة يقدمون القياس الجلى عير خبر الواحد، وهم يقبلون المراسيل، والمجاهيل، أى الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى إلى النبى ﷺ من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث. أما المجاهيل فهم مجهولون الحال من الرواة.

ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفًا للقياس، ولا يقبلونه فى الواقعة التى تعم البلوى. الرازى ص ٢٥٠، ٢٥١.

كانت الحال على ما ذكرنا حين جاء الشافعى، وقد تفقه الشافعى أول ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة، كمسلم بن خالد الزنجى، وسفيان بن عيينة، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث "مالك بن أنس" فى المدينة فلزمه، ولقى من عطفه ومن فضله ما جعله يحبه ويجله. "عن يونس بن عبد الأعلى أنه سمع الشافعى يقول: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن على من مالك بن أنس". الانتقاء ص ٢٣.

على أن نشأة الشافعى لم تكن من كل وجه نشأة الحديث، ولا استعداده استعدادهم.

لقد توجه فى أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع. "حكى عن مصعب الزبيرى قال: كان أب يوالشافعى يتناشدان، فأتى الشافعى على شعر هذيل خفظًا وقال: لا تعلم بهذا أحدًا من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا". معجم الأدباء جـ ٦ ص ٣٨٠.

وكان الشافعى بطبعه نهمًا فى العلم، يلتمس كل ما يجده من فنونه،

وقد ذكر من ترجموا له: أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن، وعالج التنجيم والطب، وربما كان درسهما في إحدى رحلاته إلى العراق، حيث كان التنجيم يعتبر فرعًا من فروع العلوم الرياضية، وكان الطب فرعًا من العلم الطبيعي. والعلم الرياضي والعلم الطبيعي قسمان من أقسام الفلسفة التي كان مسلمو العراق أخذوا يتنسمون ريحها. وكان الشافعي مغرى بالرمي يف شبابه ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة يدعو لهم ويمدهم بالمال، ويظهر: أنه لم يكن شديداً في جرح الرجال كعادة أهل الحديث. وقد نقل صاحب كتاب "طبقات الشافعية الكبرى" حكاية تدل على سخرية الشافعي من تزمت المزكين.

"قال الشافعي - رضي الله عنه - حضرت بمصر رجلا مزكيًا يجرح رجلا، فسئل عن سببه وألح عليه فقال: رأيته يبول قائمًا، قيل وما في ذلك؟ قال: يرد الريح من رشاشة على بدنه وثيابه فيصلي فيه. هل رأيته أصابه الرشاش وصلى قبل أن يغسل ما أصابه؟ قال: لا ولكن أراه سيفعل". جـ ١ ص ١٩٤، ١٩٥.

وكان في العلماء المعاصرين للشافعي، بل أهل الرأي منهم، بله أهل الحديث، من لا يراه ممنعًا في الحديث. "عن أبي عبد الله الصاغاني يحدث عن يحيى بن أكتم قال: كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة، وكان الشافعي رجلا قرشي العقل والفهم، صافي الذهن، سريع الإصابة، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء". ابن حجر ص ٥٩.

ولما ذهب الشافعي إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على

أستاذه مالك وعلى مذهبـه، وكان أهل الرأى اقوى سنداً وأعظم جاهًا بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتـوليهم شئون القضـاء، ذلك إلى أنهم أوسع حيلة فى الجدل من أهل الحديث وأنقذ بيانًا. ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية، ما روى عن إمامى أهل الرأى وأهل الحديث: أبى حنيفة ومالك.

روى عن ابن عبد البر المالكى عن الطبرى قـال: وكان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فـيمن ضربه وفى السبب الذى ضرب فيـه. قال: فحدثنى العباس بن الوليـد قال: خبرنا ذكوان عن مروان الطاطرى، أن أبا جـعفر نهى مالكًا عن الحديث: "ليس على مستكره طلاق"، ثم دس إليه من يسأله عنه، فحدث به على رءوس الناس. الانتقاء ص ٤٣، ٤٤.

أما أبو حنيـفة فينقل فى شأنه الموفق المكى فى كـتاب "المناقب": "عن معمر بن الحسن الهروى يقول: اجتمع أبو حنيفة ومحمد بن إسحاق عند أبى جعفر المنصور، وكان جمع العلمـاء والفقهاء، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار، لأمر حزبه، وبعث إلى أبى حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذى وقع له إلا أبو حنيفـة، فلما قضيت الحاجة على يديه حبسه عند نفسه ليرفع القضاء والحكام الأمور إليه، فيكون هو الذى ينفذ الأمور ويفـضل الأحكام، وحبس مـحمـد بن إسحـاق ليجمع لابـنه المهدى حروب النبى ﷺ وغـزواته. قال: فـاجتمـعنا يومًا عنده، وكـان محـمد بن إسحاق يحسده لما كـان يرى من المنصور من تفضيله وتقديمه واستـشارته فيما ينويه وينوب رعيتـه وقضاته وحكامه، وسأل أبا حنيفـة عن مسألة أراد بها أن يغير المنصـور عليه، فقال له: ما تقول يا أبا حنيـفة فى رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا، أو أن يفـعل كذا وكذا، ولم يقل إن شاء الله، موصـولا باليمين،

وقال ذلك بعد ام فرغ من يمينه وسكت؟ فقال أبو حنيفة: لا ينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعًا من اليمين، وإنما كان ينفعه إذا كان موصولا به. فقال: وكيف لا ينفعه وقد قال جد أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن استثناءه جائز، ولو كان بعد سنة، واحتج بقوله عز وجل: ﴿واذكر ربك إذا نسبت﴾؟ فقال المنصور لمحمد بن إسحاق: أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه؟ قال نعم! فالتفت إلى أبى حنيفة - رحمه الله - وقد علاه الغضب، فقال تخالف أبا العباس؟ فقال ابو حنيفة: لم أخالف أبا العباس، ولقول أبى العباس عندى تأويل يخرج على الصحة، ولكن بلغنى أن النبى ﷺ قال: "من حلف على يمين واستثنى فلا حنث عليه". وإنما وضعناه إذا كان موصولاً باليمين، وهؤلاء لا يرون خلافتك، لهذا يحتجون بخبر أبى العباس، فقال له المنصور كيف ذلك. قال: لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقية، وإن لهم الثنيا متى شاءوا يخرجون من بيعتك ولا يبقى فى أعناقهم من ذلك شيء. قال: هكذا؟ قال: نعم. فقال المنصور: خذوا هذا، يعنى محمد بن إسحاق. فأخذ وجعل رداؤه فى عنقه وحبسوه". جـ ١ ص ١٤٢ - ١٤٤.

كان طبيعيًا أن يجادل الشافعى عن أستاذه وعن مذهب أستاذه، وقد نهض الشافعى لذلك قويًا بعلمه، قويًا بفصاحته، قويًا بشباب ى عنفوانه، وحمية عربية. وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبه: عن محمد بن الحكم قال: سمعت الشافعى يقول: قال لى محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم، يعنى "أبا حنيفة ومالكا"، وما كان على صاحبكم أن يتكلم، وما كان لصاحبنا أن يسكت. قال: فغضبت وقلت:

نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله ﷺ، مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك، لكن صاحبنا أقيس. فقلت: نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله ﷺ من أبى حنيفة. فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام". الانتقاء ص ٢٤.

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك، فى قدوم الشافعى إلى العراق أول مرة. وأقام الشافعى فى العراق زمنًا غير قصير، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأى فيما درس فى العراق، ولازم محمد بن الحسن، ورد على بعض أقواله وآرائه نصيراً لأهل الحديث.

ولا شك أن الشافعى فى ذلك العهد كان متأثراً بمذهب أهل الحديث، ومتناثراً بملازمة عالم دار الهجرة، فهو كان يدافع عن مذهبه بدافع حميته لأستاذه وأنصار أستاذه المستضعفين.

أما ابن البزاز الكردرى فهو يروى فى سبب اختلاف الشافعى على محمد ابن الحسن روايات يقول فيها: "عن عبد الرحمن الشافعى: لم يعرف الشافعى لمحمد حقه، وأحسن إليه فلم يف له. وعن إسماعيل المزنى، قال الإمام الشافعى: حبست بالعراق لدين فسمع محمد بى فخلصنى، فأنا له شاكراً من بين الجميع. عن ابن سماعة قال: أفلس الشافعى غير مرة فجاء إلى محمد فحدث أصحابه فجمع له سبعين ألف درهم، ثم أتاه الثالثة، فقال: لا أهب مروءتى من بين أصحابى، لو كان أوساط أصحابه ويعد نفسه منهم، فلما أتى محمداً الثالثة أظهر الخلاف". المناقب جـ ٢ - ص ١٥٠، ١٥١.

والشافعى نفسه يرد على ذلك، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ

ابن أبى توبة قال: سمعت الشافعى يقول إنى أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه؟ وقد منعت ما ألذ من المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح - يعنى لما كان به من البواسير - ولكن لست أخالف إلا من خالف إلا من خالف سنة رسول الله. ابن حجر ص ٧٦.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

آثاره وكتبه

ولما عاد الشافعى إلى بغداد فى سنة ١٩٥ هـ - ٨١٠ - ٨١١ م ليقيم فيها سنتين اشتغل بالتدريس والتأليف. وروى البغدادى فى "كتاب تاريخ بغداد":

"عن أبى الفضل الزجاج يقول: لما قدم الشافعى إلى بغداد وكان فى الجامع إما نيف وأربعون حلقه، أو خمسون حلقة، فلما دخل بغداد ما زال يقعد فى حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره". ص ٦٨، ٦٩.

واختلف إلى دروس الشافعى جماعة من كبار أهل الرأى كأحمد بن حنبل وأبى ثور، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى إلى مذهبه. ويروى عن أحمد بن حنبل أنه قال: "ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة، إلا وللشافعى عليه منة"، فقلنا: يا أبا محمد كيف ذلك؟ قال: إن أصحاب الرأى كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حى علمهم الشافعى وأقام الحجة عليهم" الانتقاء ص ٧٦.

ووضع الشافعى فى بغداد كتاب "الحجة". "روى ابن حجر عن البويطى أن الشافعى قال: اجتمع على أصحاب الحديث فسألونى أن أضع على كتاب أبى حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر فى كتبهم. فأمرت فكتب لى كتب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة حتى حفزتها، ثم وضعت الكتاب البغدادى، يعنى "الحجة". ص ٧٦.

ويظهر من ذلك: أن مذهب الشافعى القديم الذى وضعه فى بغداد كان فى جل أمره ردًا على مذهب أهل الرأى، وكان قريبًا إلى مذهب أهل الحديث.

وروى البغدادى عن حرملة: أنه سمع الشافعى يقول: "سميت ببغداد ناصر الحديث". جـ ٢ ص ٦٨.

ونقل ابن حجر عن البيهقى: أن كتاب "الحجة" الذى صنفه الشافعى ببغداد حمله عنه الزعفرانى، وله كتب أخرى حملها غير الزعفرانى، منها: كتاب "السير" رواية أبى عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعى".

وفى كتاب كشفت الظنون:

"الحجة للإمام الشافعى، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق، إذا أطلق القديم من مذهبه يراد به هذا التصنيف، قاله الأسنوى فى المبهمات. ويطلق على ما أفتى به هناك أيضًا".

ثم انتهى الشافعى إلى مصر فآزره تلاميذ مالك، حتى إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلف الكتب ردًا على مالك تنكروا له وأصابته منهم نحن.

"قال الربيع: سمعت الشافعى يقول: قدمت مصر لا أعرف أن مالكًا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثًا، فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع، ويقول بالفرع ويدع بالأصل.

ثم ذكر الشافعى فى رده على مالك، المسائل التى ترك الأخبار الصحيحة فيما يقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين، أو لرأى نفسه.

ثم ذكر ما ترك فيه أقاويل الصحابة لرأى بعض التابعين أو لرأى نفسه وذلك أنه ربما يدعى الإجماع، وهو مختلف فيه.

ثم بين الشافعى أن ادعاء أن إجماع أهل المدينة حجة، قول ضعيف". الرازى ص ٢٦.

ويروى بعض الرواة: أن الشافعى إنما وضع الكتب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستبقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله ﷺ، فيقولون: قال مالك، فقال الشافعى: إن مالكًا بشر يخطئ. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه. وكان يقول: استخرت الله تعالى فى ذلك. ابن حجر ص ٧٦.

ومذهب الشافعى الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته وينم عن عبقريته، ويبرز استقلاله.

"سئل أحمد: ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك، أم التى بمصر؟ قال: عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق م يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك، كما يرويه الذهبى فى تاريخه الكبير". هامش الانتقاء ص ٧٧.

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب. وقد سرد البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م كتب الشافعى ولخصها عنه ابن حجر فى ص ٧٨:

(الرسالة القديمة، ثم الجديدة - اختلاف الحديث، جماع العلم - إبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بيان الفرض - صفة الأمر والنهى - اختلاف

مالك والشافعي - اختلاف العراقيين - اختلافه مع محمد بن الحسن - كتاب على وعبد الله - فضائل قريش - كتاب الأم.

وعدة كتب الأم: مائة ونيف وأربعون كتابًا. وحمل عنه حرملة كتابًا كبيراً يسمى "كتاب السنن"، وحمل عنه المزنى كتابه "المبسوط" وهو المختصر الكبير، والمنثورات، وكذا المختصر المشهور. قال البيهقى: وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها، وهى: الصيام - والصداق - والحدود - والرهن الصغير - والإجارة - والجنائز - فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه فى الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده. قال: وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه فى مواضع أخرى.

قلت: وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيراً من الأشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعى الرجوع عنها وهى موجودة فى بعض هذه الكتب.

ثم نقل ابن حجر: أن لأصحاب الشافعى من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات. قال: وهذا يدل على أن "كتبًا أخرى حملها عنه هؤلاء؛ لأن هذه المسائل ليست فى الكتب المقدم ذكرها".

وقد ترك ابن حجر فى تلخيصه: كتاب "مسند الشافعى" ولا ندرى: أن كان البيهقى قد تركه أيضًا أم لا؟ ويقول الرازى: "إن كتابه المسمى بمسند الشافعى كتاب مشهور فى الدنيا". ص ١٤٦.

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعى إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية عندما يكون دلائلها نصوصًا.

وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضًا لذكر الدلائل من أهل الرأى.

فلما جاء الشافعى بمذهبه الجديد كان قد درس المهذبين، ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله، وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد فى طريقة الاستنباط.

وذلك يشعر باتجاهه فى الفقه اتجاهًا جديدًا هو اتجاه العقل العلمى الذى لا يعنى بالجزئيات والفروع.

ويدل على أن اتجاه الشافعى لم يكن إلى تمحيص الفروع: وما نقله ابن عبد البر فى "الانتقاء" من: أن أحمد بن حنبل قال: "قال الشافعى لنا: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال منى، فإذا كان الحديث صحيحًا فأعلمونى أن يكون كوفيًا، أو بصريًا أو شاميًا، أذهب إليه إذا كان صحيحًا" ص ٧٥

وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه، قال أبو محمد بن أخت الشافعى عن أمه قالت: ربما قدمنا فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدى الشافعى، وكان يستلقى ويتذكر ثم ينادى: يا جارية، هلمى مصباحًا. فتقدمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه. فقيل لأحمد: ما أراد برد المصباح؟ قال: الظلمة أجلى للقلب. مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٩١.

وليس هذا النوع من التفكير الهادئ فى ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع، بل هو تفكير من يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وذلك: هو النظر الفلسفى.

قال ابن سينا فى الشفاء: "إنا لا نشتغل بالنظر فى الجزئيات لكونها لا تتناهى، وأحوالها لا تثبت. وليس علمنا بها من حيث هى جزئية تفيدنا كمالا حكيمًا أو تبلغنا غاية حكيمة، بل الذى يهمنا هو النظر فى الكليات"

وكان أحـمد يقول: الشـافعى فيلسـوف فى أربعة أشيـاء: يف اللغة - واختالف الناس - والمعانى - والفقه. (الرازى ص ٣٥).

وقد حاول الشافعى: أن يجمع أصول الاستنباط الفقهى وقواعدها علمًا ممتازًا، وأن يجعل الفقه تطبيقًا لقواعد هذا العلم.

وبهذا يمتاز مذهب الشافعى من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز.

***

obeikandl.com

وضع الشافعى لعلم أصول الفقه

إذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضًا: أول من وضع مصنفًا فى العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمى، بتصنيفه فى أصول الفقه: قال الرازى: اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم - أى علم أصول الفقه - الشافعى، وهو الذى رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها فى القوة والضعف.

وروى: أن عبد الرحمن بن مهدى، التمس من الشافعى وهو شاب أن يضع له كتابًا يذكر فيه: شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة، والإجماع، والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعى رضى الله عنه "الرسالة" وبعثها إليه، فلما قراها عبد الرحمن بن مهدى قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل.

ثم قال الرازى: واعلم: أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة "أرسطاليس" إلى علم "المنطق"، وكنسبة "الخليل بن أحمد" إلى علم "العروض"

وذلك لأن الناس كانوا قبل "أرسطاليس" يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون مخلص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم، كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة؛ فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى، قلما يفلح.

فلما رأى "أرسطاليس" ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج

علم "المنطق"، ووضع للخلق بسببه قانونًا كليًا يرجع إليه فى معرفة الحدود والراهين.

وكذلك الشعراء كانوا قبل "الخليل بن أحمد" علم "العروض" فكان ذلك قانونًا كليًا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده. فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعى يتكلمون فى مسائل "أصول الفقه" ويستدلون، ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها، وترجيحاتها، فاستنبط الشافعى علم "أصول الفقه" ووضع للخلق قانونًا كليًا يرجع إله فى معرفة مراتب أدلة الشرع. ثم يقول الرازى: واعلم أن الشافعى صنف كتاب "الرسالة" ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب "الرسالة"، وفى كل واحد منهما علم كثير. ص ٩٨ - ١٠٢.

ويقول "بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى" المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ١٣٩١ - ١٣٩٢ م فى كتابه فى أصول الفقه، المسمى بالبحر المحيط: "فصل": الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس، الذى ذكر فيه؛ تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم.

ثم تبعه المصنفون فى علم الأصول. قال أحمد بن حنيل: "لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى".

وقال الجوينى فى شرح الرسالة. لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف "الأصول" ومعرفتها، وقد حكى عن ابن عباس "تخصيص عموم" وعن

بعضهم "القول بالمفهوم"، ومن بعدهم لم يقل فى الأصول شىء ولم يكن لهم فيه قدم، فإنا أينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه. من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس.

ويقول ابن خلدون فى المقدمة: "وكان أول من كتب فيه - أى فى علم أصول الفقه - الشافعى رضى الله عنه، أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى: الأوامر والنواهى، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة، من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضًا: ص ٣٩٧.

وفى كتاب "طبقات الفقهاء" للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى: "وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه، من ذلك: كتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغى". من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس.

ويقول صاحب كتاب "كشف الظنون": "أول من صنف فيه الإمام الشافعى" ذكره الأسنوى فى التمهيد، وحكى الإجماع فيه. ص ٣٣٤.

والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى: واضعًا "لأصول الفقه". يقول "جولد زيهر" فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية: "أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافى أنه وضع نظام الاستنباط الشعرى من أصول الفقه، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول. وقد ابتدع فى (رسالته) نظامًا للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم، ورتب الاستنباط من هذه الأصول، ووضع القواعد لاستعمالها بعدما كان جزافًا".

على أنا نجد فى كتاب الفهرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى "كتاب أصول الفقه".

ويقول الموفق المكى فى كتابه: "مناقب الإمام الأعظم" نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر؛ أن أبا يوسف أول من وضع الكتب فى "أصول الفقه" على مذهب أبى حنيفة. جـ ٢ ص ٢٤٥.

ونقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه "مفتاح السعادة" جـ ٢ ص ١٠٢.

ولم يرد كتاب فى هذا العلم؛ فيما أورده صاحب "الفهرست"، لأبى يوسف من الكتب. وإذا صح أن لأبى يوسف أو لمحمد كتابًا فى أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان.

وقد يؤيد ذلك، أن صاحب "الفهرست" ذكر فى أسماس كتب أبى يوسف "كتاب الجوامع" ألفه ليحيى بن خالد، يحتوى على أربعين كتابًا، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به. ولم يكن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من همهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها - النزوع إلى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعًا رحبًا. على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفقه) على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع (أصول الفقه) علمًا ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعى.

وقد لا يكون بعيداً عن غرض "الشافعى" فى وضع "أصول الفقه": أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث، ويمهد للوحدة التى دعا إليها الإسلام.

obeikandl.com

الليث بن سعد

obeikandl.com

الليث بن سعد

من المشتغلين بتاريخ الثقافة الإسلامية من يريدون أن يخصوا بعنايتهم الجانب المصرى من هذه الثقافة فيدرسوا العلماء والأدباء من المصريين الذين ساهموا فى نشأة المعارف الإسلامية، وساهموا فى السير بها إلى الكمال. وهم بهذه الدراسة يمهدون لدرس خصائص الجانب المصرى من الثقافة الإسلامية.

ويرى أهل هذا المذهب أن فى ذلك عونًا على استيفاء البحث فى الآداب والمعارف الإسلامية.

فإن الثقافة الإسلامية ذات فروع وعناصر متفاوتة، يجب تعرف ألوانها ومذاهبها للإحاطة بكل ما لهذه الثقافة من خصائص ومميزات.

وفى هذا الاتجاه نوع من توزيع العمل بين المشتغلين بخدمة غرض مشترك، وهو تلك الثقافة الإسلامية، التى هى تراث مجيد للشرق الإسلامى، بل هى فى تاريخ الثقافات الإنسانية تراث مجيد.

ولمصر خاصة فائدة من هذا الاتجاه، إذ هو سبيل إلى توثيق الصلة بين الماضى والحاضر، وإلى مراعاة الاتساق بين حلقات التاريخ.

وحق على المصلحين والمجددين فى جماعة من الجماعات أن يتبينوا ما سجل التاريخ من منازع هذه الجماعة فى علومها وآدابها حتى يسيروا فى تجديدهم وإصلاحهم على هدى.

غير أن المصريين متهمون بأنهم يبخسون فضل أهل الفضل منهم، على

حين يمنحون الغرباء تقديرهم جزافًا. فواجب علينا أن نبرئ من هذه التهمة قومنا. ومن وسائل ذلك أن نحيى ذكرى العظماء من أسلافنا، وأن ننصف اليوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم كل ما يستحقون من إنصاف.

يذكر المؤرخون أن الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ قال:

"الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به". وفى رواية عن الشافعى: "ضيعه قومه". وفى أخرى: "ضيعة أصحابه".

قال ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ فى كتابه المسمى "كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية":

"لكنه ما صنف شيئًا من الكتب ولا دون أصحابه المسائل عنه، ولذلك قال الشافعى: ضيعه أصحابه، يعنى لم يدونوا فقه كما دونوا فقه مالك وغيره، وإن كان بعضهم قد جمع منها شيئًا". (ص ٩).

وقول ابن حجر إن الليث لم يصنف شيئًا من الكتب، يخالفه ما يذكره ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥، فى كتاب الفهرست، من أن الليث بن سعد "كتاب التاريخ" و "كتاب مسائل فى الفقه".

وإذا كان قوم الليث بن سعد أو أصحابه قد ضيعوه على ما يقول الشافعى فلعلنا نحفظ اليوم بعض ما ضيعوا.

الليث بن سعد يكنى أبا الحارث، ومن المؤرخين من يقول: هو ليث بن سعد بن عبد الرحمن، وهو فيما يذكر ابن خلكان مولى بنى فهم. وبنو فهم بطن من قيس. لذلك يقال مولى بنى قيس.

ويقول أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ فى

كتاب تاريخ بغداد: "ليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث، فقيه أهل مصر، يقال إنه مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى. وأهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أهل أصبهان. وروى عن الليث أنه قال مثل ذلك. والشهور أنه فهمى، ولد بقرقشندة، وهى قرية من أسفل أرض مصر". (جـ ١٣ ص ٢).

وسياق الكلام يفيد أن المشهور كون الليث عربيًا من "فهم". ونقل البغدادى رواية عن أبى مسلم صالح بن أحمد بن عبد الله العجلى عن أبيه قال: ليث بن سعد يكنى أبا الحارث، مصرى فهمى ثقة". (ص ١٣).

قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ فى كتاب "صبح الأعشى":

"قلت ومن بلادها - أى القليوبية - بلدتنا قلقشندة وهى بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وإليها ينسب الليث بن سعد، الإمام الكبير. وقد ذكر ابن يونس فى تاريخه أنه ولد بها. قال: وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس، وليس لما يقولونه ثبات عندنا. قال ابن خلكان: بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة - وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية. وأبدل ياقوت فى معجم البلدان اللام راء، وهو الجارى على ألسنة العامة، وعليه جرى القضاعى فيما رأيته مكتوبًا فى خططه". (جـ ٣ ص ٤٠٣).

قال القلقشندى بعد ذلك:

"وقال القضاعى فى خططه فى الكلام على دار الليث بالفسطاط: وكان له دار بقرقشندة بالريف، بناها فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عنادًا له، وكان

ابن عمه، فبناها الليث ثانيًا، فهدمها، فلما كانت الثالثة أتاه آت فى منامه فقال له: يا ليث ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ فأصبح وقد فلج ابن رفاعة، فأوصى إليه ومات بعد ثلاث.

وترجم له ابن خلكان بالأصبهانى، ثم قال فى آخر ترجمته: ويقال إنه من قلقشندة. قلت: وما قاله ابن يونس أثبت، ويجب الرجوع إليه لأمرين: أحدهما أنه مصرى، وأهل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم. والثانى أنه قريب من زمن الليث، فهو به أدرى، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ثم نزل آباؤه قلقشندة المذكورة، وولد بها وسكنها فنسب إليها، كما وقع فى كثير من النسب. وإعادة داره بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدم ذكره فى كلام القضاعى، دليل اعتنائه بشأنها، وميله إليها. وحنيئذٍ فلا منافاة بين النسبتين" جـ ٣ ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

وهذا الذى يجوزه القلقشندى ليوفق بين أول كلام ابن خلكان وآخره يبعده ما نقله هو ن القضاعى، من أن ابن رفاعة كان ابن عم الليث.

وابن رفعة المقصود هنا هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى الذى ولى مصر سنة ١٠٩ وتوفى وهو وال عليها سنة ١١٧. والوليد بن رفاعة عربى صراح، من فهم، ليس فى نسبته خلاف، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضًا عربى فهمى.

وإذا كان لابد لنا من ترجيح بين الآراء المتضاربة فى أن الليث بن سعد مولى أو عربى فإنا نميل غلى القول بأنه مولى، اعتمادًا على أقدم المصادر التاريخية التى بين أيدينا. فأبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى

سنة ٢٣٠ يقول فى كتاب الطبقات الكبير: "الليث بن سعد ويكنى أبا الحارث مولى قيس".

وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٤٠ يقول فى كتاب المعارف: "الليث بن سعد، رضى الله تعالى عنه، هو مولى لقيس ويكنى أبا الحارث".

وقد ذكر من ترجموا الليث أنه قال:

"قال لى أبو جعفر المنصور: تلى لى؟ قلت: إنى أضعف من ذلك، إنى رجل من الموالى. قال: ما بك ضعف معى إلا ضعف بدنك؛ أتريد قوة أقوى منى؟ فأما إذا أبيت فدلنى على رجل".

قالوا: وكان الأمر بمصر لا يقطعون أمرًا دون الليث.

ورواية البغدادى:

"قال الليث: قال لى أبو جعفر: تلى مصر؟ قلت لا: يا أمير المؤمنين إنى أضعف من ذلك، إنى رجل من الموالى. فقال: ما بك ضعف معى، ولكن ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك لى".

ولد الليث بن سعد سنة ثلاث أو أربع وتسعين، ومولده بقلقشندة، التى هى قرية من مديرية القليوبية بمركز قليوب، وسمع علماء المصريين والحجازيين، وظهر منذ شبابه فضله.

روى ابن حجر العسقلانى عن يحيى بن بكير أنه قال: "سمعت شرحبيل بن يزيد يقول: أدركت الناس فى زمن هشام بن عبد الملك وهم متوافرون، مثل يزيد بن حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر، وجعفر بن أبى

ربيعة والحارث بن يزيد، وابن هبيرة، ومن يقدم مصر من علماء أهل المدينة ومن علماء أهل الشام للرباط، والليث يومئذٍ حدث شاب، وإنهم ليعرفون فضله ويقدمونه ويشار إليه. وقال يعقوب بن سفيان: سمعت يحيى بن بكير يقول: سمعت الليث يقول: رآنى يحيى بن سعيد الأنصارى وقد فعلت شيئًا من المباحثات، فقال: لا تفعل؛ فإنك إمام منظور إليك. قلت: ويحيى بن سعيد تابعى من شيوخ الليث".

وفى هذا دلالة على ما تميز به الليث منذ صباه من فضل ونبالة.

وروى ابن حجر أيضًا عن عمرو بن خالد قال: قلت لليث بلغنى أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهرى. قال: نعم، للعلم، فأما لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحد قط.

ونبل الليث بن سعد من أظهر صفاته، وقد وصفه بالنبل من ترجموا له منذ عهد بعيد. ففى طبقات ابن سعد:

"وكان سريًا من الرجال، نبيلا سخيًا، له ضيافة".

ورحل الليث إلى العراق أيضًا فأخذ عن علمائه ونشر علمه هناك.

ومات الليث - فيما يقول ابن سعيد فى الطبقات - يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة خمس وستين ومائة، فى خلافة المهدى".

وكذلك يقول ابن قتيبة فى كتاب المعارف: إنه مات سنة خمس وستين ومائة.

ويقول أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ فى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى العباسى الثانية من قبل الرشيد، فى يوم الاثنين من صفر سنة ١٧٥:

"وتوفى الليث بن سعد يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة، وصلى عليه موسى بن عيسى". ص ١٣٤.

ويقول مثل ذلك الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد. وعلى هذا سائر من ترجموا لليث.

ولولا أن ابن سعد صرح بأن الليث مات فى خلافة المهدى، والمهدى ولى الخلافة من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٩ لحسبنا أن تحريف النساخ هو الذى جعل السبعين ستين. وقد ذكر المؤرخون أن الشافعى لقى الرشيد، والرشيد ولى الخلافة سنة ١٧٠.

روى عن لؤلؤ خادم الرشيد - كما ذكره ابن حجر - قال:

"جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام، فقال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة! ثم ندم فجمع الفقهاء فاخلفوا، ثم كتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه، فلما اجتمعوا جلس لهم، فسألهم فاحتلفوا، وبقى شيخ لم يتكلم وكان فى آخر المجلس - وهو الليث بن سعد - قال: فسأله، قال: إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته. فصرفهم، فقالك يدنينى أمير المؤمنين. فأدناه، فقال أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف فأحضر، فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها. ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال: أمسك يا أمير المؤمنين، قل: والله. قال: فاشتد ذلك على هارون، فقال: يا أمير المؤمنين، الشرط أملك. فقال: والله! حتى فرغ اليمين. قال: قل إنى أخاف مقام ربى. فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين، فهى جنتان وليس بجنة واحدة. قال: فسمعنا التصفيق والفرح من

وراء الستر، فقال له الرشيد: أحسنت. وأمر له بالجوائز والخلع، وأمر بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره، وصرفه مكرمًا".

وروى ابن حجر أيضًا عن الليث بن سعد أنه قال: "لما قدمت على هارون الرشيد قال لى: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا راس العين صفت العين. قال: صدقت يا أبا الحارث".

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب تاريخ مصر ولاتها وقضاتها، عند الكلام على أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى، الذى ولى القضاء بمصر من قبل الهادى سنة سبعين ومائة.

"إن عمران الطائى صاحب البريد شفع إلى الحزمى فى خصم فكتب إليه الحزمى: ما أنتوالقضاء؟ عليك تدبر دوابك وبراذعها وكنس زبولها. فكتب إلى هارون يبغيه ويقول: إن الناس قد شكوه. وأتى كتاب هارون إلى داود بن يزيد بن حاتم، وكان يومئذ واليا على مصر، يأمره أن يوقف الحزمى للناس، فأقامه داود فأثنى الناس عليه خيراً، وركب الليث بن سعد، وعاصم بن العلاء القاص، وعبد الله بن لهيعة إلى الأمير، فأثنوا عليه، فقال الحزمى لداود: قد جاءتنى فرجة فيها لباس العافية مما أنا فيه، ولست تصل رحمى بمثل إعفائى، وقد رضيت لك المفضل بن فضالة. فلم يزل به حتى أعفاه".

وليس لنا بعد هذه الدلائل إلا أن نوافق جمهرة المؤرخين على أن الليث بن سعد توفى سنة ١٧٥ وأن ما ذكره ابن سعد فى الطبقات غير صحيح.

ولما توفى الليث بن سعد فجع الناس فيه، وشيعوا جنازته إلى قبره فى جوع زاخرة، ودفن بالقرافة المعروفة الآن بقرافة الإمام الشافعى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفى - كما فى الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية:-

"جالست الليث بن سعد، وشهدت جنازته مع أبى فما رايت جنازة قط بعدها أعظم منها، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن ويعزى بعضهم بعضًا، فقلت لأبى: يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صحب الجنازة! فقال: يا بنى، كان عالمًا كريمًا، حسن العقل، كثير الإفضال، يا بنى لا ترى مثله أبدًا".

ويقول على مبارك باشا فى خططه:

"وكان قبره مسطبة، ثم بنى عليها هذا المشهد بعد سنة أربعين وستمائة. وقيل إن الذى بناه ابن التاجر".

وقد فصل المقريزى ما كان من أمر هذا القبر منذ كان مسطبة إلى عهده، وقال:

"ويجتمع بهذه القبة فى ليلة كل سبت جماعة من القراء، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر، ويقصد المبيت عندهم للتبرك بقراءة القرآن عدة من الناس، ثم تفاحش الجمع وأقبل النساء والأحداث والغوغاء فصار أمرًا منكرًا، لا ينصتون لقراءة ولا يتعظمون بمواعظ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز، ثم زادوا فى التعدى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور، وبنوا مبانى اتخذوها مراحيض وسقايات ماء".

هذا ما كان فى عهد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥. ولسنا ندرى ما يفعل الناس اليوم عند قبر الإمام العظيم.

يعنى أكثر المترجمين لليث بأمره وفقيهًا. وابن سعد يقول:

"وكان ثقة كثير الحديث صحيحه وكان قد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر". وبحسبه ان يكون من مشايخ البخارى ومسلم. أما فقهه فيقول صاحب الفهرست: "الليث بن سعد من أصحاب مالك وعلى مذهبه، ثم اختار لنفسه، وكان يكاتب مالكًا ويسأله".

وقال ابن حجر:

"وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق فى الطبقات أن علم التابعين من أهل مصر تناهى إلى الليث بن سعد. قال: وقال ابن وهب: ومسائل الليث تقرأ عليه، فمرت به مسألة فاستحسنوها، فقال رجل: ما أحسن ما قال الليث، كأنه كان يسمع مالكًا فيجيب. فقال ابن وهب: بل لعل مالكًا كان يسمع الليث يجيب فيجيب، والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث".

ورواياتهم مختلفة فى المفاضلة بين مالك بن أنس والليث بن سعد، ومن الناس من يسوى بينهما. ففى كتاب مناقب سيدنا الإمام مالك للشيخ عيسى ابن مسعود الزواوى:

"وقال ابن وهب: لقيت ثلاثمائة وستين عالمًا، ولولا مالك بن أنس والليث بن سعد لضللت فى العلم".

وإنما وقعت المفاضلة بين الليث بن سعد وبين مالك بن أنس دو غيره من فقهاء العصر لأن الليث بن سعد معدود من أصحاب الحديث. وقد ذكره ابن قتيبة فى أصحاب الحديث دون أصحاب الرأى. ومالك بن أنس يعتبر زعيم أصحاب الحديث.

وعندى أن الليث على أنه أقرب إلى سمت أهل الحديث فى زهده وورعه، وأقرب إلى أهل الحديث فى كثرة روايته وحفظه. كان طرازًا وحده بين أهل الحديث، وهو الذى مهد للشافعى ذلك المنهج الوسط بين أصحاب الرأى وأصحاب الحديث.

وروى عن الشافعى أنه قال:

"ما فاتنى أحد فأسفت عليه ما أسف على الليث بن سعد، وابن أبى ذئب". ويروى أن الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال: "لله درك يا إمام، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم، والعمل، والزهد، والكرم".

كان عهد الليث عهد الدولة العباسية فى نشأتها، وقد نهضت الدراسات الفقهية لحاجة الدولة إلى قانون شرعى منظم، وظهر تميز المذهبين: مذهب أهل الحجاز أهل الحديث، الذين يعتمدون فى أحكامهم على السنن والآثار، ويستكثرون من الروايات والأخبار، ولا يلجأون إلى الرأى إلا قليلا؛ ومذهب أهل العراق أهل الرأى، الذين كان حظهم من رواية الحديث قليلا وكان اعتمادهم على الرأى كثيرًا. وكان كل من هؤلاء وهؤلاء يقصد إلى استنباط الأحكام وتدوينها، تيسيرًا وتنظيمًا لأمر القضاء وسياسة الدولة.

وقد غلب على أهل الحديث الاهتمام بأن تكون سياسة الناس وأعمالهم موافقة لظاهر النصوص من غير كبير عناية بأسرار الأحكام ومرامى النصوص.

أما أهل الرأى فشغلهم تفريع المسائل وفرض الفروض ليجدوا لها حلا بدقيق النظر ولطف الحيلة.

وجاء الليث بن سعد فجعل همه أن يوجه الفقه وجهة جديدة تخرجه من دائرة التخصص بخدمة النظم الحكومية، وتخلصه من تساهل أهل الرأى وتشدد أهل الحديث.

وفى كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله:

"وكان الليث بن سعد كثيراً ما يقول لأصحاب الحديث: تعلموا الحلم قبل العلم".

وقد رأينا كيف أفتى الليث بن سعد هارون الرشيد فى رد طلاقة، مراعيًا فى ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعى ظواهر الأحكام.

وفى كتاب الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء:

"... أخبرنى يحيى بن عبد الله بن بكير قال: سمعت الليث بن سعد يقول: كنت أسمع بذكر أبى حنيفة وأتمنى أن أراه، فكنت يومًا فى المسجد الحرام فرأيت حلقة عليها الناس متقصفين، فأقبلت نحوها فرأيت رجلا من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال: إنى رجل من أهل خراسان كثير المال، وإن لى ابنًا ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره. فذكر نحوه سواء وزاد، قال الليث: فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة جوابه".

والقصة المشار إليها أن الرجل قال يا أبا حنيفة، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمنى وأعجزنى. قال: ما هو؟ قال: لى ولد ليس لى غيره، فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له للوقت: اشتر الجارية التى يرضاها هو لنفسك ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك إليك، وإن أعتق أعتق ما لا يملك.

وإذا كان الليث قد أعجب بقول أبى حنيفة وبسرعة جوابه فما أظنه كان يرى أن يجيب هذا الجواب، ولا أن يسرع ذلك الإسراع.

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيراً مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق، إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات. وقد جمع ابن حجر أربعين حديثًا من عوالى الحديث مروية عن الليث منها:

كان رسول الله ﷺ ينهى إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى اثنان دون واحد.

ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه.

ومنها: أن امرأة وجدت فى بعض مغازى رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

ومنها: أن رسول الله ﷺ أمر رجلا كان يتصدق بالنبل فى المسجد ألا يمر بها إلا وهو آخذ بنصولها.

ومنها: أن النبى ﷺ أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه، فناداه: إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله وإلا فليصمت.

ومنها: أن رسول الله ﷺ قال: لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه.

وهذا الذى نهض به الليث من توجيه الحركة الفقهية إلى الناحية الخلقية الرحية، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً فى أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضته الأولى، ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية.

ومن عجب أن عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وهو مصرى من قلقشندة بلد الليث، لم يذكر مواطنه فى كتابه الطبقات الكبرى، وهو قد ذكر أبا حنيفة ومالكًا والشافعى وابن حنبل، وغيرهم ممن لم يكونوا أقرب إلى التصوف من الليث.

ولم يقف علم الليث عند حد الفقه والحديث، بل كان محيطًا بأنواع المعارف المتداولة فى ذلك الزمن. وفى كتاب حسن المحاصرة للسيوطى المتوفى سنة ٩١١.

"وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أحدًا أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة".

بل هو قد كان فوق ذلك مؤرخًا حجة خصوصًا فيما يتعلق بفتح مصر وتاريخها الإسلامى إلى عهده. بل له روايات تتصل بتاريخ مصر قبل الإسلام كروايته فى منابع النيل التى ذكرها ياقوت فى معجم البلدان، وهى رواية إن لم تدون لنا حقيقة تاريخية ثابتة فهى تدون أسطورة تمثل صورة التفكير فى بعض العصور.

وفى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندى روايات عن الليث كثيرة، فى ولاة مصر وقضاتها، وما جرى من الأحداث فيها منذ فتحها.

وفى كتاب معجم البلدان لياقوت روايات عن الليث عديدة فى تحقيقات جغرافية ولغوية.

وكل ذلك يدل على سعة اطلاع الليث وتميزه فى فنون المعارف.

وقد ضاعت معارفه فيما ضاع من آثار الأقدمين إلا ما نجده منثوراً فى كتب مختلفة.

واستيفاء البحث فى ترجمة الليث يقتضى جمع هذه المنثورات وتمحيصها وترتيبها. ونرجو أن ينشط لهذا البحث النافع بعض أهل الجد من شبابنا.

لم يتول الليث شيئًا من أمر الحكم، وقد عف عن الولاية وعف عن القضاء. وفى كتاب حسن المحاضرة.

"قال ابن كثير: وقد حكى بعضهم أنه ولى القضاء بمصر"، وهو غريب على الليث بن سعد كان من جلال القدر ورفعة المنزلة بحيث يلجأ إلى رأيه ولاة مصر وقضاتها.

قال الكندى فى تاريخ القضاة:

سمعت بكر بن منصور يقول: قدم علينا كتاب أمير المؤمنين مروان فى حوثرة ابن سهيل: أن قد بعثت إليكم رجلا أعرابيًا بدويًا فصيح اللسان، من حاله ومن حاله كذا، فأجمعوا له رجلا فيه مثل فضالة، يسدده فى القضاء ويصوبه فى النظر، ويسدد فى كذا وكذا. قال بكر بن منصور: فأجمع الناس كلهم يومئذٍ على الليث بن سعد، وفيهم معلماه يزيد بن أبى حبيب وعمر بن الحارث".

وفى حسن المحاضرة:

"وقال الذهبى فى العبر: كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث وكان إذا رابه من أحد شىء كاتب فيه فيعزل؟ وقد أراده المنصور أن يوليه إمرة مصر فامتنع".

وكانت مشورة الليث ذات أثر ظاهر فى سير الحكم وفى تنظيمه.

ذكر ابن إياس فى تاريخ مصر: فى حوادث سنة ٩٢٨:

"وقيل إن الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه وأفرد للرزق الأحباسية ديوانًا يختص بها دون ديوان الجيش، واستمر ذلك باقيًا من بعد الإمام الليث إلى الآن، حتى جاء فخر الدين بن عوض فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة، وأبطل ما كان صنعه الليث بن سعد رضى الله عنه" جـ ٣ ص ٣٠٤.

وفى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندى عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى بن موسى العباسى الأولى بمصر فى سنة إحدى وسبعين ومائة:

"ثم أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، وقالا: هو من عمارة البلاد. واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين.

بقى جانب من جوانب الليث بن سعد لم تعرض له وما أحسب أحداً من المترجمين لليث أغفله، ذلك هو أمر غناه، فقد كان الليث موفور الغنى

وكان سخيًا جوادًا، وكان زاهدًا ورعًا. واختلفوا فى تقدير ثروته، فقائل أن الليث بن سعد كان يستغل خمسة آلاف دينار فى كل سنة، وقائل أكثر من ذلك، حتى بلغ بها بعضهم ثمانين ألف دينار، بل قال بعضهم إن دخل الليث بن سعد كان مائة ألف دينار فى كل عام، وكلهم متفقون على أن الليث لم تجب عليه قط زكاة، بل يقول بعضهم: كانت تأتى عليه السنة وعليه دين. كان منفقًا يهب الألوف. وأعطى ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى مالك بن أنس ألف دينار، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجارية تساوى ثلاثمائة دينار.

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث إن ابنًا لى عليل، واشتهى عسلا. فقال: يا غلام، اعطها مرطًا من عسل. والمرط عشرون ومائة رطل.

كانت لليث ضياع فى الجيزة وفى غير الجيزة، وكانت له دور فى الفسطاط وفى قلقشندة، وكانت له فلك تجرى فى البحر بأمره. وفى تاريخ بغداد:

"سمعنا أبا رجاء قتيبة يقول: قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها نطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه.

وفى كتاب الخطط لعلى مبارك باشا[1]:

"وكانت له قرية بمصر يقال لها الفرما، مهما حمل إليه من خراجها يجعله صررًا ويجلس على باب داره ويعطى من مر به من المحتاجين صرة صرة حتى لا يدع من ذلك إلا اليسير.

(١) انظر (قلقشندة) فى الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٠٨.

وحمل إلى بغداد ليفتى الرشيد فى زوجته زبيدة، وأمر له بخمسة آلاف دينار، فردها وقال: ادفعها لمن هو أحوج منى. وقال يحيى بن بكير: كانوا يزدحمون على باب الليث فيتصدق عليهم فلا يترك أحداً. وتصدق وأنا معه على سبعين بيتًا من الأرامل، ثم بعث غلامًا له بدرهم فاشترى به خبزًا وزيتًا ثم رجعت إلى بابه فرأيت عنده أربعين ضيفًا فأخرج إليهم اللحم والحلوى، فلما أصبح قلت لغلامه: بالله عليك لمن الزيت والخبز؟ قال: لسيدى. فتعجبت من كونه يطعم أضيافه اللحم والحلوى وهو يأكل الخبز والزيت.

ومن مناقبه أن رجلا من أهل مصر صودر فى أيامه، ونودى على داره فبلغت أربعمائة درهم، فاشتراها الليث، وبعث يونس بن عبد الأعلى الصدفى يأخذ المفاتيح، فوجد فى الدار أيتامًا وعائلة، فقالوا: بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر قرية نذهب إليها. فجاء إلى الليث وأخبره بالقصة فبكى وقال له: عد إليهم وقل لهم: الدار لكم، ولكم ما يقوم بكم فى كل يوم".

وكما كان الليث بن سعد إمامًا فى العلماء وعظيمًا فى الكرماء، فقد كان ابنه شعيب بن الليث عالمًا كريمًا وهو مدفون إلى جواره. وفى خطط على مبارك باشا: "قال ابن أبى الدنيا: حج شعيب بن الليث سنة فتصدق بمال عظيم، فمر عليه رجل من العلماء فسأل عنه فقيل له هذا العالم الكريم ابن الكريم. ولما دخل دمشق جاءه رجل وقال له: إن عبد أبيك معى، لأبيك تجارة ألف دينار وأنا الآن فى الرق، فخذ مال أبيك وأعتقنى إن شئت. فأعتقه وأعطاه المال. قال الخطابى: فلا أدرى أيهما أحسن: العبد فى إقراره بالمال والرق، أم السيد حيث أعتقه وأعطاه المال".

هذه نظرة عجلى فى حياة عظيمة لإمام من أسلافنا عظيم. وأرجو أن أكون وفقت لتوجيه الناشئين إلى درس سيرة من أكرم السير سيرة الرجل الذى ذكره ابن حبان فى الثقات فقال: "كان من سادات أهل زمانه، فقهًا وورعًا، وعلمًا وفضلا وسخاء".

***

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الشيخ محمد عبده

وجهته فى الإصلاح الدينى[1]

- ١ -

الدور الأول

قد يكون خير مـا نحيى به أستاذنا المرحوم الشيخ محـمد عبده فى يوم تذكار وفاته[2] هو أن ندرس جانبًا من جوانب حياته العظيمة.

ونختـار وجهته فى الإصـلاح الدينى، لأنها مظهر شخـصيته، ومـركز الدائرة فى تفكيره وعمله.

كان الشيخ محمد عبده مصلحًا يسعى للتوفيق بين العقل والشرع، وقد قرر ذلك من رثوه من ترجموا لحياته:

قال إسماعيل صبرى:

ووقفت بين الشـرع والعقل بعـدما قـد اعـتـقـد الإلفـان أن لا تلاقـيـا

وقال حفنى ناصف:

ويذكـر العلمـاء أن لا يغـمـضـوا عـمـا اقـتـضـاه زمـانهم أبصـارا

ويظل بالإصـلاح مـغـرى، كلمـا وجـد السـبـيل إلى صـلاح سـارا

---

(١) نشرت هذه المقالات الخمس فى جريدة السياسة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ (١١ يوليه سنة ١٩٢٣) إلى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤١ (١٧ يوليه سنة ١٩٢٣)

(٢) توفى الأستاذ برمل الإسكندرية فى السـاعة الخامسة من مسـاء الثلاثاء ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ (١١ يوليه سنة ١٩٠٥ م).

وقال حافظ إبراهيم:

ووقفت بين الدين والعلم والحجا فاطلعت نوراً من ثلاث جهات

وقالت باحثة البادية:

والعلم والدين للجنسين مطلب فليس يختص جنس منهما بهما

فنحن فى الحزن شاطرنا الرجال كما فى الاستفادة شاطرناهما قدما

وقال جورجى زيدان فى ترجمة الشيخ، فى الجزء الأول من كتاب - تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر" :

"فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الإسلام إلى الإصلاح انقسم المسملون إلى فئتين ترى بقاء القديم على قدمه، وهم حزب المحافظين، وفئة ترى حل القيود القديمة وإطلاق حرية الفكر، والرجوع إلى الصحيح من قواعد الدين، ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الدخيلة - وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه، وبكل جارحة من جوارحه وكانت مساعيه ترمى إلى غرضين رئيسيين: الأول تنقية الدين الإسلامى من الشوائب التى طرأت عليه، والثانى تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث؛ ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميًا وصناعيًا وتجاريًا وسياسيًا" .

ونحن نرجع إلى الأستاذ نفسه فى بيان وجهته فى الإصلاح الدينى نقلا عن المجلد الثامن من المنار:

"وارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشرى التى

وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلطه وخبطه؛ لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى. وأنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث فى أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل.

وكل هذا أعده أمرًا واحدًا، وقد خالفت فيه راى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم".

وغذا تتبعنا دعوة الأستاذ إلى الإصلاح الدينى منذ ظهورها فى آثاره المكتوبة نجد بدايتها فى الفصول التى نشرها فى جريدة الأهرام سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م بعنوان: (العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية).

فى ذلك العهد كان التعليم النظامى انتشر فى وادى النيل ولفت الناس حتى أهل الأزهر إلى العلوم الحديثة.

ويبين لنا منزلة هذه العلوم يومئذٍ فى نظر الأزهريين ما نسخه لنا بعض أصحابنا من فتاوى المرحوم الشيخ الأنبابى المخطوطة المحفوظة بمكتبته، ونصه: "سئل حفظه الله تعالى بما صورته: ما قولكم رضى الله عنكم - هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية، مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنه بالكيمياء، وغيرها من سائر المعارف .. الخ؟"

ولا نريد أن نطيل بذكر هذه الفتوى المؤرخة غرة ذى الحجة سنة ١٣٠٥ هـ فبحسبنا أن نعرف أن تعلم الرياضيات كان محتاجًا فى ذلك الزمن إلى رخصة من شيخ الإسلام.

أما الشيخ محمد عبده فقد كان اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى منذ سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨١٨م، ولم يكن نظر السيد إلى هذه العلوم كنظر الأزهريين، لذلك كان يدرس مدة مقامه بمصر المنطق والفلسفة والهيئة فى منزله لطلاب الأزهر، دون أن يفكر فى أن الأمر يحتاج إلى استفتاء وإفتاء.

وفى العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة "كاوه" الفارسية التى تنشر فى برلين، أن السيد جمال الدين ورد على بوشير فى سنة ١٣٠٣ ونزل فى منزل الحاج أحمد خان، وأقام ثلاثة أشهر عنى فيها بتعليم انبه محمد على خان المقلب بسديد السلطنة. وكان السيد يشير على تلميذه بقراءة كتب فى الجغرافيا وعلم الهيئة، وسيرة نابليون، وجلستان للسعدى، وكتاب كليلة ودمنة، وجرائد مصر.

لا جرم كان من أثر التصادم فى نفس الشيخ محمد عبده بين ما أحدثته دروس جمال الدين وأثر الوسط الأزهرى، أن كتب بحماسة تنوء بأسلوبه الغض، مقال الأهرام الذى يقول فيه:

فمن أعجب ما رأيناه فى هذه الأيام، أن بعض طلبة العلم الكرام. قد تحركت إلى المعالى عمته، فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية . . . فلماسمع بذلك بعض أحبائه وأصفيائه وأقربائه . . اهتز واضطرب، وعجب كل العجب، وأخذه الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله أن يأخذه، وأوسع لذلك الطالب النصيحة. ويا لها من فضيحة أى فضيحة! قائلا: كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع فى الشبهات . . وليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدى الإسلام وغذيت بلبانه وتربت فى حجرة . . فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى

هذه الأزمان . . فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الممالك والدول. وها نحن بعد النظر لا نجد سببًا لترقيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلو مفى مابينهم . . فبإذن أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا".

وبعد هذا الفصل المنشور فى جريدة الأهرام لعامها الأول نجد للشيخ محمد عبده فى الجريدة الرسمية أيام توليه تحريرها سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م مقالا فى حكم الشريعة فى تعدد الزوجات، جاء فيه:

"أفبعد الوعيد الشرعى وذلك الإلزام الدقيق الحتمى، الذى لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم القدرة على العدل فضلا عن تحققه؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية، واستحصال لذة وقتية، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف؟!"

ونجد أيضًا للأستاذ فى الجريدة الرسمية فى البدع كالأذكار المصحوبة بالطبول، والاجتماعات المعروفة بالحضرات، وكبدعة الدوسة التى يقول فيها:

"وهى أن ينطرح الناس على الأرض مصطفين أحدهم إلى جانب الآخر ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم . . .

خصوصًا وأن الدوسة وأمثالها من أنواع البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل فى السنة النبوية الغراء، حتى يلتمس أحد موافقتها ولو بطريق التشبيه على بعد. وأما دعوى أنها من الكرامات فهى باطلة عند أهل السنة

والجماعة، فإنهم نصوا فى كتب التوحيد على أن من شروط الكرامة أن لا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته. فإن صارت كذلك كأكل كل النار، وضرب السلاح، والدوسة ونحوها، التى يتعاطاها كل من يأخذ عهدًا على طريقة الرفاعى أو السعدى، أو يتولى مشيخة السعدية أيا كان، فلا تكون من قبيل الكرامة، بل تعد من الحيل المذمومة".

هذه هى باكورة الإصلاح الدينى الذى توجهت له همة الأستاذ فى بداية أمره، وهو نوع من الإصلاح العملى، مرجعه إلى نصر العلوم الحديثة على خصوصها من أهل الدين، وتهذيب نظام العائلة بوضع قيود لتعدد الزوجات، ومحاربة البدع التى ليست إلا صورًا دينية شوهاء.

وجدير بالعهد الذى كان الخديوى إسماعيل يدفع فيه الأمة دفعًا فى سبيل المدنية الحديثة القائمة على العلم والجمال أ، يلهم نفسًا صالحة كنفس الشيخ عبده السعى فى تذليل ما يقوم بين يدى العلم من العقبات، وإزالة ما يشوه حياتنا من البدع المنسوبة إلى الدين.

- ٢ -

الدور الثانى

حدثت الثورة العرابيـة ونفى الأستاذ الشيخ محمد عـبده من مصر، ثم التقى بالسيـد جمال الدين الأفغانى فى باريس ليصـدرا جريدة العروة الوثقى معًا فى سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م.

وكانت حـركة الإصلاح التى يحاولهـا جمال الدين الأفـغانى مستـعينًا بتلميذه ترمى إلى تلخـيص دول الإسلام من النفوذ الأوربى مادية وسيـاسية، والعمل على رقـيها الداخلى المسـتقل بإيجاد النظم الدسـتورية الحرة فيـها ثم جمع شتاتها ممالك مستقلة مـتحدة تحت لواء خليفة واحد، مكونة لدولة قوية قادرة على صد العدوان الخارجى.

قال صـاحب مجلة المنار فى ترجـمتـه للشيخ محـمد عـبده فى المجلد الثامن:

"حدثنـى أنه قال فى أوروبا: إن هذه السـياسـة لا يأتى منها خـير لأن تاسيس حكومة إسـلامية عادلة مصلحة لا يتـوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط.

فخـير لـنا أن نذهب معًـا إلى مجـهل من مجـاهل الأرض لا سلكان للسياسة فـيه، ونحاول تربية أولاده على ما نحب، فإذا تيسـر لنا تربية عشرة رجال يبـذلون أنفسـهم لخدمة الأمـة لا يصدهم عن ذلك الجـثوم فى وطن، والإخلاد إلـى الأهل والسكن، بل يكنون همهم الضـرب فى الأرض لتربـية مثلهم على ما ربوا عليـه، فلا يبعد أن يربى الواحد منهم عـشرة، فيكون لنا

فى زمن قريب مـائة رجل يعملون للإسلام، والرجـال هم الذين يعلمون كل شيء، فقال السيـد: إنما أنت مثبط، قد شرعنا فى عمل فـلابد من المضى فيه حتى يتم أو نعجز".

ويدل هذا على أن الشيخ مـحمد عبـده لم يكن مملوء النفس بالأمل فى الإصـلاح السيـاسى القـائم على تحـريك العـواطف الدينيـة، هذا النوع من الإصلاح الذى كان ملء السيـد جمال الدين، ما يسعى له بتأليف الجـمعيات السرية فى بلاد الإسلام المختلفة، وبإصدار جريدته وبث أعوانه.

على أن فكرة أستـاذنا فى الإصلاح الدينى التى كانت قبل عـهد العروة الوثقى، محليـة تلهمـها حاجات الـبلاد المصرية، استحالت إلى فكرة أكـبر وأشمل بحكم النظر فى شئون المسلمين فى الأقطـار المختلفة، ونعرف أسباب انحطاطهم، والإلمام بجملة عقائدهم وآثارها فى أعمالهم.

كل ذلك مع ما يمـده من فطة شيخنا وتربيـته الدينية وجهـة إلى دعوة الإصـلاح الدينى بمعناها الكامل، التـى بلغت شأوهـا منذ دخل الأزهر ونقل الإفتاء عام ١٨٩٩ م، فأصبح للناس إمامًا.

ويقول الأستاذ فيما كتبه ردًا على هانوتو:

"مقصد الجميع ينحصر فى اسـتعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه، ويمكن أن يقـال: إن الغرض الذى يـرمى إليه جـميـعـهم إنما هو تصحـيح الاعتـقاد، وإزالة مـا طرأ عليه من الخطأ فى فـهم نصوص الديـن، حتى إذا سلمت العـقائد من البـدع تبعـها سلامـة الأعمـال من الخلل والاضطراب، واستـقامت أحـوال الأفراد واستـضاءت بصائرهـم بالعلوم الحقيـقيـة، دينية ودنيوية، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليـمة . . وهذه سبيل لمريد الإصلاح

فى المسلمين لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به. فلم العدول عنه إلى غيره؟".

فالشيخ يعتقد أن المسلمين ابتدعوا فى عقائد دينهم ما ليس منها وأخطأوا فى فهم النصوص الدينية، فكان لابد لدعوته الإصلاحية من تمحيص العقائد وتفهيمهم النصوص على وجهها. لذلك عنى بمدارسة التوحيد، والتأليف فيه، واشتغل بتفسير القرآن الكريم درسًا وكتابة.

يرى الأستاذ أن رد الناس إلى قواعد الدين وأحكامه على ما كان فى بدايته ممحصًا مما عرض عليه هو خير ما يوجههم إلى منتهى الكمال الإنسانى ويسمو بهم عن ضروب الشحناء والمنازعات، ويمحو بينهم أسباب الفرقة والخلاف.

يقول الأستاذ فى كتاب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية":

"الدين دين الله، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره، أما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين، فهو لا يتغير، إيمان بالله وحده وإخلاص له فى العبادة، ومعاونة الناس بعضهم بعضًا فى الخير، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا".

يقول الأستاذ فى كتاب كتبه إلى قس إنكليزى خطب فى لندرة مبينًا محاسن الإسلام:

"ونستبشر بقرب الوقت الذى يسطع فيه نور العرفان الكامل، فنهزم له ظلمات الغفلة، فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التى طالما انزعجت لها أرواح الملتين . .

وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبًا متوافقة، وصحفًا متصادقة، يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين، فيتم نور الله ويظهر دينه الحق على الدين كله".

كان الشيخ مؤمنًا بنجاح دعوته إيمانًا لا يزعزعه ريب، فهو يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية:

"قد وعد الله بأن يتم نوره ويظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعوامًا، ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به إلى ما يرون ونرى، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا على تقويم العقل والجدان . . ولابد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . . وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون، وتبعهم الجامدون القانطون. وليس بينك وبين أعدك به إلا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل، وتعليم الجاهل، وتوضيح المنهج، وتقويم الأعوج".

ومن أجل ثقة الأستاذ بدعوته وإيمانه بأنها حق يؤيده البرهان، وأنها سبب سعادة وصلاح للبشر لا شقاق وخصام. كان ينعى على المسلمين

ولعلهم بالتفكير والتفسيق، ويرى ذلك من وهن عقائدهم وضعف المزاج الدينى فيهم، ويبرئ الدين نفسه من تلك الخلة.

يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية:

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين، وعرف من قواعد دينهم، وهو: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر. فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟ . . .

لا أكاد أخطئ القارئ إذا زعم أن المسلم استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق، من فضل ما علمه جيرانه إذا كانوا يقولون هرتقة وتهريق وهو هرتوفى، أو ما يمثل ذلك؛ أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطرى العدوى من أهل الملل المتشددة . . متى أولع المسلمون بالتفكير والتفسيق، ورمى زيد بأنه مبتدع، وعمر بأنه زنديق؟

أشرنا فى ما سبق إلى مبدأ هذا المرض، ونقول الآن: إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله . . وتولى شئون المسلمين جهالهم وقام بإرشادهم فى الأغلب ضلالهم. فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لأدنى سبب.

وكلما زادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوًا فى الباطل، ودخل العلم والفكر

والنظر (وهى من لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه، وانقلب ما كان واجبًا فى الدين محظوراً فيه".

ويقول الأستاذ فى تفسير سورة العصر:

"ومن الناس من إذا سألته فى أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله: لا تقل لك فتكفر أو تعتزل أو ما أشبه ذلك، وهو سلاح يتخذه المرتابون فى عقائدهم ترسًا يدفعون به ما يخشون من الشبه التى تزلزل عقائدهم، ولكن هذا الدفاع يدل على ارتياب صاحبه فى عقيدته قبل الدفاع فإن صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع، فإن وجد مخاطبة شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه. وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هى التى أغفلت دون المسلمين أبواب العلم؛ فإنه كلما لاح نور إلهى فى يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزال والفلسفة ما يخمد ذلك النور فيه".

- ٣ -

الدور الثانى أيضًا

تنتظم دعوة الشيخ محمد هبده إلى الإصلاح الدينى - كما تبين مما سردناه آنفًا - أمورًا ثلاثة:

أ - تحرير الفكر من قيد التقليد.

ب - اعتبار الدين من موازين العقل البشرى، وعدة صديقًا للعلم.

جـ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

ونحن نتناولها بالبحث على هذا الترتيب:

أ - تحرير الفكر من قيد التقليد

يقول الأستاذ فى كتاب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية":

"فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح . . بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبًا غير واقف عند الظن فهو ناج".

يرد الأستاذ بالإيمان الصحيح اليقين، وإليك ما يقوله فى اليقين نقلا من تفسيره سورة "العصر":

"وليس الإيمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقادًا وإن كان بمحض التقليد لا عمل لعقل ولا لوجدان فيه . . وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آمن به . . .

أما هذا الإيمـان الذى يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فـينشأ ابن المسلم لا يفهم معنى لما يعـتقد أو يقول أبوه، وإنما ينطق كما ينطق، وتأخـذه الحمية لما يراه يحمى له، لا يفهم لذلك معنى، ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كما ينشأ ابن النصرانى أو ابن اليهـودى أو ابن المجوسى على مثل ذلك، فهو ممـا لا يعتد الله به".

ويزيده بيانًا أيضًا قول الشيخ فى رسالة التوحيد:

"أنحى الإسلام على التـقليد، وحمل عليه حـملة لم يردها عنه القدر .. ونبه علـى أن السبق فى الزمان ليـس آية من آيات العرفان، ولا مـسميًا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان. وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان .. بهذا وما سبقـه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما، وهما: استقـلال الإرادة، واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت إنسانيته، واستعـد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها".

يقـرر الأستاذ أن لا نجـاة إلا بالإيمـان المبنى على النظر وقيـام الدليل، ويقول فى تفـسير سورة العـصر: "فإنه لا يقين مع التـحرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبهـا بدون تقييـد، كما هدانا اللـه إلى ذلك فى كتابه؛ فـإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد".

ومعنى هذه الحرية التى يجعلها الأسـتاذ للنظر، يتبين على وجه واضح مما سنذكره.

قال فى رسـالة التوحيد: "وتقـرر بين المسلمين كافـة - إلا من لا ثقة

بعقله ولا بدينه – أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل".

قال فى حاشيته على شرح الدوانى على العقائد العضدية، التى كتبها سنة ١٢٩٣ هـ ولكنها لم تطبع إلا فى آخر حياته سنة ١٣٢٢ هـ: "والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم".

وفى رسالة التوحيد:

"وإنما العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد؛ فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به. فإن جاء ما يوهم ظاهرة ذلك فى شىء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه، وفى التفويض إلى الله فى علمه".

والمفهوم من هذا القول أن على العقل أن يذعن لما ثبت فى الدين وإن لم يفهمه. لكننا نجد فى رسالة التوحيد نفسها قولا آخر وهو:

"من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب، بحيث

لا ينقص تأويله شيئًا من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقض شيئًا من بناء الشريعة فى التكليف، كان مؤمنًا حقًا . . والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر، بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل" .

وهذا القول الثانى وإن كان أدنى إلى حرية النظر التى يهتف بذكرها الأستا كثيراً فإن وجه التفريق فيه بين الشرائع العملية وأخبار الغيب ليس ببين.

ب - اعتبار الدين من موازين العقل وعده صديقًا للعلم

يرى الأستاذ أن وظيفة الدين غير وظيفة العلم، فلا موضع لتصادمهما وهما حاجتان من حاجات البشر قد لا تغنى إحداهما عن الأخرى.

وهذا قوله فى رسالة التوحيد:

ولكنها - أى الحاجة إلى الرسل - حاجة روحية، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكاتها، أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين.

أما تفضيل طرق المعيشة، والحذق فى وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد الوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجه العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه . . وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى، كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لابد معها من السمع لإدراك

المسموعات مثلا، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات".

ولا يرى الأستاذ أن من عمل تمحيص الحقائق العلمية، والتعرض لما هو من أبحاث الفنون. وقد بين ذلك فى قوله فى رسالة التوحيد:

"ليس من وظائف الرسل مثلا هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات، فليس ما جاءوا له تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن فى طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم؛ فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . . . أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شىء مما ذكرنا من أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر إلى الغصو لإدراك أسراره وبدائعه".

وبذلك التمييز بين وظيفة الدين ووظيفة العلم، لم يترك الأستاذ سببًا للعداوة بينهما، ولا نقص من قيمة واحد منهما، ثم لم يكتف بهذا، بل زاد من مظاهر عطفه على العلم، فقال فى رسالة التوحيد أيضًا: وعلى كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزًا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان.

بل يجب أن يكون الدين، باعثًا لها على طلب العرفان، مطلبًا لها باحترام البرهان، فارضًا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين

يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غـير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليـه جناية لا يغفرها له رب الدين" .

- ٤ -

وصل بنا البحث إلى الغـرض الثالث من أغراض الإصـلاح الإسلامى التى توخاها المصلح العظيم الشيخ محمد عبده، وه ومن أجلها خطراً وأكبرها أثراً؛ لاتصاله بأسس الدين المقدسـة وطريقة فهمها، ولظهـور مذاهب الشيخ ومنازعه فى هذا الباب بأوضح من ظهورها فى سائر أبواب الإصلاح الدينى.

جـ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى

الدين الإسلامى فى مذهب الشيخ محمـد عبده على ما ذكره فى رسالة التوحـيد:- "هو الدين الذى جاء به مـحمد ﷺ، وعـقله من وعاه عنه عن صابتـه ومن عاصرهم، وجرى الـعمل عليه حينًا مـن الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل، ولا ميل مع الشيع" .

فالأستاذ يرى أن الإسلام هو المبادئ التى جاء بها نبيه وثبت ورودها عنه على سذاجتها، بل يرى أن الأستاذ ذلك فى جـميع الأديان، فيقول فى كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية:

"عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ ممحصًـا مما عرض عليه . . فإذا أريد أن يحتج بقـول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فيـؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس

إلى منشأ الديـن، ومن تلقوه على سذاجـته التى ورد بهـا من صاحب الدين نفسه".

ومنابع الدين الإسلام فى سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه مبنية فى قول الشيخ فى رسالة التوحيد:

"بعد أن ثبتـت نبوته عليه السلام - بالدليل القـاطع على ما بينا - وأنه إنما يخبر عن الله تعـالى، فلا ريب أنه يجب تصديق خبـره والإيمان بما جاء به. ونعنى بما جـاء به، ما صـرح به فى الكتاب العـزيز، وما تواتر الخـبر به تواترًا صحيحًا مـستوفيًا لشرائطه، وهو ما أخبر به جمـاعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس.

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر . . أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فـيها على من بلغته وصدق بصـحة روايتها . . . حدث به أو قـرره طعن فى صدق الرسالة، وكـذب بها. ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه مـن الدين بالضرورة، وهو ما فـى الكتاب وقليل من السنة فى العمل".

الكتاب العـزيز وقليل من السنة العمليـة هذا هو الأصل الذى ينبغى أن يرد إليه الدين الإسلامى فى مذهب أستاذنا. ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلا فقد صـرح الشيخ في تفسير سورة الفـاتحة: "أنه يجب أن يكون القرآن اصلا تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين".

لا غرو مع هذا أن تتوجه عزيكة الأسـتاذ فى أخريات حياته إلى العناية بتفسير القرآن عناية تكاد تستغرق كل مجهوده فى الإصلاح الدينى.

قال جـورجى زيدان فى ترجمـته للأسـتاذ فى كتـاب "تراجم مشـاهير الشرق فى القرن التاسع عشر":

"وأما تنقـية الدين الإسلامى من الشوائب الطارئة عـليه فأساس سـعيه فيهـا أنه أطلق لفكره الحرية فى تفسيـر القرآن، ولم يتقيد بما قـاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الأئمة تبديل شىء منها.

فرأى أن يحل نفسه من هذه القيـود، ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر، فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار، ولنواميس العمران، على ما بلغ إليه هذا العلم إلى الآن من مطابقـته لأحكام العقـل وأصول الدين، كمـا فعل النصـارى فى تفسـير الكتـاب المقدس بـعد ثبـوت مذاهـب العلم الجديد، وهو أوعـر مـسلكًا فى الإسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه.

والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم، فيعقلون على تفسير أهمية كبرى؛ لأنه مرجع الفقه وغيره من الأحكام الشرعية والسياسية".

يدعو الشيـخ محمد عبـده جميع الناس إلى فهم القـرآن، وأخذ دينهم منه، فيقول فى مقدمة التفسير المطبوعة مع تفسير سورة الفاتحة:

"خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصـوصية فى أشـخاصـهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنـسانى الذى أنزل القرآن لهدايته.

يقول الله تعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم﴾. فهل يعقل أنه يرضى عنا بأن لا نفـهم قوله هذا، ونكتـفى بقول ناظـر نظر فيـه لم يأتنا من الله وحى

بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا؟ كلا! إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالم وجاهل".

ويقول فى هذه المقدمة أيضًا:

"ومن الممكن أن يتناول كل واحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير، ويصرفها عن الشر؛ فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا، وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذى نحن عليه".

ويشتد الأستاذ فى الرد على من يريدون الحجر على العقول أن تنظر فى القرآن، لتستقى منه دينها، قائلا فى تفسير الفاتحة:

"ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر: لا حاجة إلى التفسير والنظر فى القرآن؛ لأن الأئمة الشابقين نظروا فى الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منها، فما علينا إلا أن ننظر فى كتبهم ونستغنى بها. وهكذا زعم بعضهم. ولو صح من تعظم شأن الفقه مخالف لإجماع الأمة من النبى - ﷺ - إلى آخر واحد من المؤمنين. ولا أدرى كيف يخطر هذا على بال مسلم؟".

يعترف الأستاذ بأن الكلام فى التفسير أصبح غير سهل، ولكنه يقرر أن نزول الكتاب هدى ونوراً لا يتحقق إلا بفهمه والاهتداء بهديه. وهذا قوله فى تفسير سورة الفاتحة:

"التكلم فى تفسير القرآن ليس بالأمر السهر، وربما كان من أصعب الأمور. وما كل ما صعب يترك. ولذلك لا ينبغى أن يمتنع الناس عن طلبه ووجوه الصعوبة كثيرة.

ولكن الله تعالى خفف علينا بأن أمرنا بالفهم والعقل للكلام؛ لأنه إنما

أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه. ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه".

أما وجهة الشيخ محمد عبده فى ما تناوله من تفسير القرآن فقد بينها فى مقدمة التفسير:

"والتفسير الذى نطلبه هو فهم القرآن من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة؛ فإن هذا المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله".

وجهة الطرافة فى تفسير القرآن هى حسن الطريقة فى البحث، ولطف التصوير لمعانى القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وإدراكها وحاجاتها. والشيخ فى كلا الأمرين متأثر بمناهج الفكر الحديث. ونسوق لذلك أمثلة بالمقدار الذى يتسع له المقام، نجعلها على قسمين:

١ - ما هو طريف بأسلوبه فى البحث

٢ - ما هو طريف بمنازعه فى الفهم

ونأتى بهما مرتبين هذا الترتيب ونجعلهما فى ختام بحثنا فيما أخذنا أنفسنا به من معالجة هذا الموضوع.

- ٥ -

الأستاذ الإمام طريف فى طريقته فى التفسير. وهو طريف بأسلوبه فى البحث، وبمنازعه فى الفهم. وإليك أمثلة من ذلك:

١ - أمثلة ما طريف بأسلوبه فى البحث.

قال الأستاذ فى تفسير سورة العصر، عند قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾:

"التواصى أن يوصى كل من الشخصين صاحبه بشىء، والحق ما يقابل الباطل، وهو يكاد يكون معروف المعنى عند كل الناس، وإنما يخطئ أغلبهم فى حمل هذا المعنى على جزئياته، فيأتى الواحد منهم إلى أشد الباطل بطلانًا ويقول إنه الحق، فلو حمل الحق لهنا على ما يراه الموصى حقًا لكان المعنى: وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقده حقا وطالبه بالأخذ به، وربما كان الآخر لا يعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصى ضربًا من التنازع؛ لأن كلا يدعو الآخر إلى ما يرضاه، وهو النزاع بعينه. فلا يصح حمل المعنى عليه. وإنما الذى يصح أن يقصد هو أن يوصى كل واحد صاحبه بتحرى الحق فى ما يعتقد، بأن ينبه إلى الحرص على البحث فى الأدلة، والتلطف فى النظر للوقوف على الحق الذى هو الواقع لا يختلف فيه بعد معرفة وجهه".

وفى تفسير جزء عم عند الكلام فى تفسير قوله تعالى: "كلا إن كتاب الفجار لفى سجين" من سورة المطففين ما يأتى:

"وقد رأيت فى بعض كتب أهل البحث فى اللغات أن الوحل يسمى فى اللغة الأيثيوبية (سنجون) بالجيم العجمية مع إمالة فى حركة الواو، ولا يخفى ما فى معنى الوحل مع التسفل. وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن؛ فإن كثيرًا من الألفاظ الأيثيوبية لكثرة المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة، استعملوه فيما يقارب الوحل، فلا يبعد أن يقال إن الكتاب فيه أى أنه مكتوب به، أو على التصوير والتمثيل. أى أن الأعمال لخبثها تصور وتمثل كأنها مكتوبة، ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتابًا مرقومًا أن الأعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتابًا مرموقًا".

وفى تفسير السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفى سجين﴾:

وقد رأيت عن بعض الباحثين فى اللغات الشرقية أن لفظ علوا فى اللغة الأيثوبية (الحبشة القديمة) معناه النقش باللون الأحمر. فإن لم يكن العليون من العلو فمن الجائز أن اللفظ دخل فى لغة اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة، ثم أطلق على كل مزين لطيف. وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن على ما هو من معنى العلو".

٢ - أمثلة ما هو طريف بمنازعه فى الفهم:

يقول الشيخ فى تفسير جزء عم تفسيره لآية: ﴿والسماء وما بناها﴾ فى سورة "الشمس":

"السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون، الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها، وتتحرك فى مداراتها. هذا هو السماء، وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كُوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تماسك به".

ويقول فى تفسير سورة "الفيل":

"وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس

الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر.

وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها".

وفى سورة "الماعون":

"والحض على طعام المسكين: الحث عليه ودعوة الناس إليه، والذى لا يحض على إطعام المساكين لا يطعمهم فى العادة. فقوله: ولا يحض على طعام المسكين كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت، الذى لا يستطيع له كسبًا، وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه، بل هذا هو الملحف الذى يجوز الإعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب. وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم، وهى طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت فى الكتاب . . "

وجاء فى سورة الناس:

"فالمرسلون قسمان: قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم. ولكل واحد من الناس شيطان، وهى قوة نازعة إلى الشر تحدث منها فى نفسه خواطر السوء. وإنما جعل الوسواس فى الصدور على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب، والقلب

مما حواه الصدر عندهم. وكثيراً ما يقال إن الشك يحوك فى صدره، وما الشك إلا فى نفسه وعقله. وأفاعيل العقل فى المخ، وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه".

هذه وجهة الأستاذ الإمام فى دعوة الإصلاح الدينى التى نهض بها مخلصًا جريئًا ولقى فى سبيلها ما لقى. وهى دعوة سامية بما قامت عليه من المبادئ، سامية بما ترمى إليه من الأغراض الشريفة، سامية أيضًا بما تحمل الأستاذ من أجلها من الآلام.

ونناجى أستاذنا فى ختام القول بنا ناجاه به صديقه المرحوم إسماعيل صبرى باشا:

ألا نم مع الأبرار فى الخلد ناعمًا فكم بت فينا ساهر العزم عانيا